أهل البيت

تأليف
سليمان سامى محمود

مراجعة
طه عبد الرءوف سعد
من علماء الأزهر الشريف

الناشر

دار الخلود للتراث
٤٢ سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة
ت ٥٩١٩٧٢٦ / ٠١٢٣٩٢٠١٩٦

دار جرش للنشر والتوزيع
٤ حارة الوليد بالبليطة
ت: ٠١٠٣٧١٥٧١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: أهل البيت

اسم المؤلف: سليمان سامى محمود

الناشر: دار الخلود للتراث– دار جرش

العنوان: ٤٢ سوق الكتاب الجديد بالعتبة– ٢١ ش الإمام عبده بالأزهر الشريف

الطبعة: الأولي يناير ٢٠٠٦ م.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٥/١٧٧٢٥

الترقيم الدولي: ٤-٠٣-٦١٧٧-٩٧٧

دار الخلود للتراث – دار جرش

ت: ٠١٢٣٩٢٠١٩٦ & ٠١٠٣٧١٥٧١٤ & ٥٩١٩٧٢٦ & ٥٠٦٩٥٨٢

E-mail: dar_alkholoud@Hotmail.com
E-mail: dar_alkholoud@Yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى أسبغ علينا جلابيب النعم، واصطفى سيدنا محمداً (ﷺ) على سائر العرب والعجم، وفضل آل بيته على المخلوقات ورفعهم بفضله وكرمه أعلى الدرجات، فأحرزوا قصبات سبق سيادة الدنيا والآخرة، واتصفوا بالكمالات الظاهرة والباطنة والمحاسن الفاخرة، فهم نور حدقة كل زمان وريحانة حديقة كل عصر وأوان، المميزون بالفضل عمن سواهم، الخاذلون لمن أبغضهم وعاداهم فهم معادن العلوم والمعارف، أولو الفصاحة والبلاغة واللطائف.

أحمده سبحانه وتعالى الذى أنار الوجود بأنوار طلعة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وخلع عليه من حلل الجمال والجلال ما ملأ القلوب وأدهش الأفهام، وجعله إمام حضرته وعروس مملكته، وشرفه على سائر الأنام ورفع ببركته قدر المنتمين إليه ومنحهم من واسع فضله سوابغ الإنعام، وفرض على أمته مودة ومحبة أهل بيته السادة الكرام (ﷺ) وعلى آله وأصحابه وأحزابه صلاة وسلاما دائمين بدوام ملك الله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أدخرها لهول الآخرة ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب العلامات ، والمبعوث بالآيات الواضحة والبراهين القاطعة المؤيدة بالمعجزات (ﷺ) وعلى آله وأصحابه الطاهرين الذين من تمسك بهم كان من الفائزين المتمسكين بالنسب المتين وبعد:

إن من أهم الأمور الدينية، وآكد العقائد الإسلامية اعتقاد أن سيدنا محمداً (ﷺ) أفضل من كل ملك ورسول، ولأصوله وفروعه أشرف أصول وفروع، كيف لا وقد اتصلت بنسبه أنسابهم، وارتبطت بحسبه أحسابهم، فهم منه وإليه، وأقرب الناس لديه، ولا ريب فى أن محبته (ﷺ) فرض على كل موحد، مجتهد أو مقلد، وبحسب زيادتها ونقصانها تكون زيادة الإيمان ونقصانه، ومن ادعى الإيمان بدونها فقد عظم نفاقه وبهتانه.

ومن محبته (ﷺ) محبة من اتصلوا به، ورجعت أنسابهم كآبائهم وأبنائهم إلى نسبه. أما آباؤه فقد انقضت أعصارهم، وبقيت أخبارهم، فمن ادعى محبتهم لأجله فلا تثريب عليه، وتسلم دعواه إليه، إذ لا دليل على بطلان دعواه، ويوكل باطنه إلى الله.

وأما أبناؤه فهم بركة هذه الأمة ، الكاشفون عن غياهب الكون كل غمة ، فلابد وأن يوجد فى كل عصر طائفة منهم يدفع الله بها عن الناس البلاء ، فإنهم أهل الطهر والنقاء فقد قال الله تعالى: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**(الأحزاب: ٣٣).

وقد قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فى تفسير قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) هم أهل بيت النبي (ﷺ) طهرهم الله من السوء وخصهم برحمة منه.

وقال ابن عطية: الرجس اسم يقع على الإثم والعذاب، وعلى النجاسات والنقائص: فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت.

واختلف المفسرون فى أهل البيت فذهبت طائفة منهم أبو سعيد الخدرى، وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهم كما نقله الإمام البغوى وابن الخازن وكثير من المفسرين إلى أنهم "أهل العباءة" وهم رسول(ﷺ) وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم ، وذهب جماعة: منهم ابن عباس وعكرمة إلى أنهم أزواجه الطاهرات (ﷺ).

ويذهب جمهور المفسرين إلى شمول الآية للفريقين أهل العباءة وأمهات المؤمنين رضوان الله عليهم أجمعين.

وقال شيخ الصوفية، وإمام العارفين الشيخ الأكبر سيدى محيي الدين بن العربي رضي الله عنه فى الباب التاسع من الفتوحات المكية:

ولما كان رسول الله (ﷺ) عبداً محضاً قد طهره الله وأهل بيته تطهيرا وأذهب عنهم الرجس، وهو كل ما يشينهم، فإن الرجس هو القذر، هكذا حكى القرآن قال الله تعالى: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾** (الأحزاب: ٣٣).

فلا يضاف إليهم إلا مطهر، فإن المضاف إليهم هو الذى يشبههم، فما يضيفون لأنفسهم إلا من له حكم الطهارة والتقديس، فهذه شهادة من النبي (ﷺ) لسلمان الفارسي بالطهارة والحفظ الإلهي والعصمة حيث قال فيه رسول الله (ﷺ): ((سلمان منا

أهل البيت)).

فقد صرح الشيخ الأكبر سيدى محيي الدين بن عربي وهو إمام الصوفية ، وكفى به حجة بدخول الشرفاء أولاد فاطمة كلهم رضي الله عنهم ومواليهم كسلمان الفارسي رضي الله عنه إلى يوم القيامة فى حكم هذه الآية من الغفران ، فهم المطهرون اختصاصا من الله وعناية بهم لشرف محمد (ﷺ) وعناية الله به.

ومن هذه المقدمة يتبين لنا أن هناك رأيين فى مفهوم "آل البيت" و"أهل العباء": الأول ويقصد به النبي (ﷺ) وزوجاته الطاهرات، والثاني ويقصد به من كان بداخل العباء وهم سيدنا عليّ بن أبى طالب وزوجته السيدة فاطمة الزهراء وابناهما سيدنا الحسن والحسين.

ولما كان الأمر كذلك ، ولما كانت النية متجهة إلى الكتابة فى هذا الموضوع ، فقد رأيت أن يكون الكتاب الأول وهو الجزء الثامن من كتاب التربية الصوفية خاصا بالنبي (ﷺ) وعن زوجاته الطاهرات، أما الكتاب الثانى وهو الجزء التاسع من كتاب التربية الصوفية فهو خاص بأهل العباء.

وإنني أسال الله الكريم أن يرزقنا التوفيق والهدى والسلامة من الزيغ والردى ، وأن ينفعنا بعباده الصالحين وأن يجعلنا من حزبه المفلحين وأن ينفع بهذين الكتابين وغيرهما المسلمين والمسلمات فى مشارق الأرض ومغاربها وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجه الله الكريم وإننى أُشهد الله تعالى أنني لا أبغى عليه أجراً ولا مالاً بل حسبة خالصة لوجه الله عز وجل متأسيا بقول الله تعالى **﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾** (هود: ٢٩).وخاصة أن رسول الله (ﷺ) يقول: ((**ما أهدى المرء المسلم لأخيه المسلم هدية أفضل من كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ضلالة**)) (ضعيف) أنظر ضعيف الجامع حديث رقم ٥٠٣٠). وذلك أيضاً أسوة بالكتب السابق تقديمها للأمة الإسلامية التى منها: موسوعة الدعاء المبارك، وأدعية أركان الإسلام، وأدعية الأنبياء والرسل، والهادي إلى مناسك الحج والعمرة، وكتاب أسرار الحج بين الشريعة والحقيقة والنور الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى، والحب الإلهي، ولآلئ محبة رسول الله (ﷺ) (أطلبه مع هذا الكتاب). وأنوار تجليات الذات الإلهية وأطوار الحقيقة المحمدية، وأركان الإسلام

بين الشريعة والحقيقة وأشعار ومناجاة أهل العشق الإلهي، والتربية الصوفية التى ظهر منها سبعة أجزاء حتى الآن وسوف يستمر طبع الأجزاء الباقية إن شاء الله.

وكل هذه الأعمال قدمتها ابتغاء وجه الله الكريم لم أطلب عليها آجراً ولا جزاء ولا شكورا.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

سليمان سامي محمود

الباب الأول

الرسول ﷺ

مـــولده

تمهيد:

لرسول الله وسيرته عليه الصلاة السلام فى نفوس الناس منزلة خاصة وتقدير عميق لا يتمتع به أى شخص فى الوجود أو أى عصر من عصور التاريخ، لأنها النبوة الصافية الوضاءة، والعظمة الخالدة التى لا تضار بإنكار المنكرين ولا ينال منها جهل الجهلاء الحاقدين. نهض بشريعة حاوية للشمائل الإنسانية التى يقدرها جميع الناس بالشواهد الساطعة والبينات الواضحة، والتي يجلها المسلم وغير المسلم إن كان من المنصفين.

العالم قبيل بعثته عليه السلام:

ولكي ندرك مدى الجهد الذى قام به النبى الكريم وما تحمله من آلام ومشاق فى سبيل تبليغ دعوته يحسن بنا أن نلم إلمامة سريعة بما كان يموج فى العالم آنذاك من مفاسد وآفات مهلكات هبطت بالإنسان إلى الحضيض وتركته فى منزلة أقل من مستوى الحيوان وأوصلتها العيوب الخلقية والنفسية إلى ما دون ذلك.

فلم ينقض القرن الخامس الميلادي ويبدأ القرن السادس حتى دخل التاريخ فى أحط أدواره وانحدار الإنسانية إلى أسفل، لا توجد قوة تمنعها من التردى إلى المكان السحيق، فلم تكن هناك عقيدة سماوية منذ أن انطفأ سراج الأنبياء منذ زمن بعيد، وضاعت معالم الحنيفية السمحة، وضاع معها كل شرع ودين، فأصبحت الحياة مسرحاً للفوضى والانحلال وتعسف الحكام، واختل النظام، حتى الديانات السماوية نضب معينها وأضحت فريسة للمنحرفين العابثين، ولعبة للمحترفين المنافقين.

وكانت الدولتان الكبيرتان، فارس والروم، تمثلان القوة المادية وتفتقدان القوة الروحية ، فهناك فارس تجتاحها الفتن والثورات وتتنازعها الأغراض والشهوات. وتركزت فيها المؤامرات والاغتيالات حتى أصبحت تسير إلى نهايتها بخطى حثيثة أودت بكل مقوماتها الذاتية التى بنت عليها مجدها وسيادتها خاصة فى دولة الأكاسرة التى ساءت فيها النظم الاجتماعية والاقتصادية والإدارية، مما قضى عليها وأتى على بنيانها من القواعد.

وهذه بيزنطة وقد اضمحل الدين فى نفوس أهلها وتحولت منه إلى الجدل العقيم والخلافات المذهبية وإلى انتشار الفساد مما حطم معنوياتها وأفقدها ذاتها ووصلت فى ترديها وانحدارها إلى آخر نقطة.

أما الدول الأخرى فى الشرق والغرب ، فكان منها الحبشة التى أوشكت أن تضيع بين الأوثان المستعارة تارة وبين الهمجية تارة أخرى، وهى فوق هذا التشويه الدينى ليس لها رسالة تسعى إلى تحقيقها ، ولا قيمة لها فى سجلات التاريخ.

أما الهند والصين فلم تكونا أحسن حالاً، بل انحطت البراهمية والبوذية، ودخلت فيها العادات الساقطة التى لا يبقى معها حكم ولا يستقر فيها نظام، وفى الصين أيضاً دخلت البوذية وحملت معها تلك الأوضاع الوثنية من الأصنام والهياكل وتماثيل بوذة وما إلى ذلك مما كانت تموج به الدولة الصينية، مما ألب عليها الفتن فتدهورت اجتماعيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً ودب فيها الفساد الديني والمذهبى. وهكذا بقية الأمم الأخرى المجاورة لم تكن أحوالها خيراً من حال الدول الأخرى الكبرى التى أشرنا إليها من قبل.

أما العرب.. فبرغم ما يمتازون به من صفات ونعوت، تسمو أحياناً فتبلغ بهم درجة الرقى، وتنحط أحياناً أخرى فتنزل بهم إلى مصاف العجماوات، فقد سادهم نظام القبائل والعشائر ،وأصبحت حياتهم تقوم على الغلبة والسيادة.

فسادت فيهم شريعة الغاب الذى لا يترك للعقل فرصته فى التفكير والتدبير، فاختلت أحوالهم السياسية والاجتماعية، وكان نور العلم يكاد يكون منطفئاً بجانب الاستبداد الطاغى والفوضى الضاربة أطنابها، وليس فى جزيرة العرب فحسب بل فى كل بقعة من العالم حتى فقدت الإنسانية رشدها، ولا أدل على ذلك من أن العرب الذين اتصفوا بصفات غاية فى النبل، كالجود والكرم وحماية العرض والشرف، قد ألغوا عقولهم فتراهم يسجدون لصنم لا يضر ولا ينفع، ويتخذونه إلهاً يعبدونه ليقربهم إلى الله زلفى، وأحالوا الكعبة المشرفة إلى مكان يزخر بمعبوداتهم الباطلة، وفقد البيت الحرام مهمته المقدسة التى بنى من أجلها، وبذلك أظلم الجو وأصبحت الحياة قاتمة، وانتابتها حالة من الفوضى وقله الحياء، وتمكنت الأحقاد القبيلة بين بعضهم البعض، وتغلب

عليهم الطمع والجشع فقامت الحروب لأوهى الأسباب بل انتهكت حرمة الطفولة- وناهيك بدفن البنات أحياء- حتى نعى الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾(النحل: ٥٨ – ٥٩).

فالعالم فى خطر محدق من كل صوب وحدب، وحاله تنذر بالزوال أو يتحتم من أجلها التغيير والتجديد، حتى أصبح العالم يتطلع إلى هادى يرشده قبل أن تنطمس العواطف النبيلة ويزول كل أثر للأخلاق بعد أن ضاعت مقاييس الفضيلة والمثل الرفيعة، من لنا بهادي يقي البشرية من الهوان، ويجعلها تستقر على عقيدة كاملة تامة تكون مصدر خير وهداية للناس. ومن غير محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه لكى ينهض بتلك المهمة الجسيمة، وهو الذى بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

بشائر مولد الرسول ﷺ

سبق ميلاد النبي بشائر كثيرة توحى بأن العالم مقبل على حدث جليل سوف يغير من طريقته وأسلوب حياته وينير ما أظلم من حياته فها هو بيت الله العتيق يحفظه الله من العدوان الغاشم الذى دبره أبرهة الأشرم لهدم الكعبة ليصرف الحجيج عنه إلى بناية أقاموها فى صنعاء، ثم إن قريشاً لم تكن لها طاقة بحرب جيش قوى يتقدمه الفيلة.

وتأتى هذه الحادثة فى عام مولده المبارك فيهلك الله الغزاة بأضعف جنده مما تخبرنا عنه سورة الفيل، ولم تكن هذا إلا بشرى بين يدى ميلاده عليه الصلاة والسلام وإيماء إلى أنه جاء لتطهير هذا البيت الأقدس ليكون مسجداً للقائمين والعاكفين، والركع السجود.

ولعل رؤيا جده عبد المطلب تعطينا الدلالة على هذه البشرى العظيمة، فقد روى أن عبد المطلب رأى رؤية أفزعته فذهب إلى كاهنة قريش فحكى لها ما رأى، قال: إنى رأيت الليلة وأنا نائم فى الحجر كأن شجرة قد نبتت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها فى المشرق والمغرب، وأنه يشع منها نور وهاج ما رأيت أظهر منه ، ورأيت

العرب والعجم ساجدين عندها وهى تزداد كل ساعة عظمة وضياء وارتفاعًا ، ورأيت رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها فإذا دنوا منها أخرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منها ريحاً فرفعت يدى لأتناول منها نصيباً فلم أنله فانتبهت مذعوراً فزعاً فتغير وجه الكاهنة وقالت: لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجلٌ يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس.

وكان عبد المطلب يتوقع أن يكون هذا المولود ابنه أبا طالب، ولما ولد محمد ابن عبد الله كان أبو طالب يحدث بهذه الرؤيا ويقول: إن الشجرة هى محمد ولأن صحت الرواية فإنها تكون لروح صافية لرجل نبت من سلالته خير الأولين والآخرين.

وفى ليلة مولده عليه السلام أصيبت معاقل الشرك والوثنية، وأماكن البغى بما أصابها من الفزع والزلزلة. فهذه نيران المجوس تخمد بعد طول إيقاد، ومياه ساوى تغور بعد أن ظلت تفور وبعد أن عُبِدَتْ من دون الله قرونًا وقرونًا. وتلك الأصنام تُنَكس وقصور تتداعى، والشيطان يفزع ويهيل على رأسه التراب. فقد روى أن نفراً من الحنفاء الأوابين الذين كانوا يدينون ويتعبدون على ملة إبراهيم منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهما ، دخلوا على صنم ليلة مولد النبى عليه الصلاة والسلام فوجدوه مقلوبا على وجهه فحاولوا رده إلى وضعه ثلاث مرات وهو ينقلب، ولما تعجبوا من أمره وتساءلوا عن سبب تنكيسه سمعوا هاتفاً يقول:

تردى لمولود أضاءت بنوره ... جميع فجاج الأرض فى الشرق والغرب

ومن العجائب والغرائب التى تَستَرْعى الأنظار، أن يكون مولد خاتم الأنبياء وربيع الإنسانية الأنضر، فى شهر ربيع الأول، الموافق فصل الربيع أعدل الفصول وأجملها وألطفها. وقرة الأعين، وبهجة الأنفس، ومسرة القلوب..

اختصاص ربيع الأول بالمولد:

وقد يسأل سائل: لِمَ خص ربيع الأول بالمولد الشريف؟

وقد أجاب العلماء العارفون عن ذلك بأشياء منها:

١- إن شهر الربيع فى ذاته، ليس من الأشهر ذوات الشرف والنباهة، كالمحرم ورجب ورمضان مثلاً. فاختار الله لمولد رسوله شهراً عادياً، ليشرف بالرسول

الكريم، لا أن يشرف الرسول به. ولو ولد فى الشهور ذوات الحرمة، لتوهم أنه شرف بها. وذلك من عناية الله بحبيبه، وتكريمه له.

٢- بالبشارة على الأمة. والتفاؤل له فى الإسلام، ولكل مسمى من اسمه نصيب سواء أكان إنسانا أم زماناً أم مكاناً. ففصل الربيع يخضر الحياة، وينضر الدنيا، ويزين الأيام، ويحيى الأرض بعد موتها، ويذكر الخلق بأنعام الله، ويروح نفوسهم بعطر الإيمان ويندى قلوبهم ببشاة اليقين، ويمدهم بضروب من النعم والخيرات والأرزاق وألوان من النبات والزهر والثمر.وكذلك مولد الرسول فى شهر الربيع، يشير إلى قدره العظيم، ومكانته السامية- ويبشر العباد والبلاد: بأنه أرسل رحمة للعالمين. وهداية للضالين. ومناجاة للهالكين.ونعمة للبشر أجمعين.

٣- وجود الشبه الدقيق بين الربيع والشريعة المحمدية، ففصل الربيع معتدل فى جوه. معتدل فى طول أيامه ولياليه، سالم من العلل والأمراض، صاحى السماء، ضاحى الشمس، سافر الليل، متألق الكواكب، ناعش للأبدان، باعث للأرواح، مصباح للأمزجة، شارح للصدور.

وكذلك الشريعة الإسلامية، سمحة فى ظاهرها وباطنها، بيضاء ليلها كنهارها، لا تُعَطِّل العقول، ولا تميت القلوب، ولا تقتل العواطف، ولا تحمل الناس فوق طاقتها، وسط بين الشرائع لا تفريط ولا إفراط، ولا تعطيل ولا إجحاف. ولا ضرر ولا ضرار، آخت بين حاجات الأجسام والأرواح، وجمعت بين الدين والدنيا، مصادقا لما جاء فى دستورها الجامع: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

شهر ربيع شهر ضيافة:

وقد يسأل سائل أيضاً: لماذا لم نأمر فى شهر ربيع بالاستزادة من العبادات والاجتهاد فى البر، والتشمير للعمل الصالح، والإكثار من الصدقات، كما فى شهر رمضان، والأيام والليالى الفاضلة المشهورة؟

وقد أجاب عن ذلك الإمام "ابن الحاج" المالكي بما يأتى:-

١- أن تلك الأزمنة حصلت لها الفضيلة فيها، وهذا الشهر "ربيع" حصل له التشريف بظهور من جاءت الأعمال والخيرات التى حصلت بها الفضيلة على يديه وبسببه (ﷺ).

٢- مولده- عليه السلام- فى شهر ربيع فى فصل الربيع (كان يوافق ذلك فى هذا الوقت)، يحمل إشارة ظاهرة لا تغيب عن ذوى الفطن، بالنسبة لاشتقاق لفظة "ربيع" إذ فيه فأل حسن يفيض بالبشارة على الأمة. والتفاؤل له فى الإسلام، ولكل مسمى من اسمه نصيب سواء أكان إنسانا أم زماناً أم مكاناً. ففصل الربيع يخضر الحياة ، وينضر الدنيا، ويزين الأيام، ويحيى الأرض بعد موتها، ويذكر الخلق بأنعام الله، ويروح نفوسهم بعطر الإيمان ويندى قلوبهم ببشاة اليقين، ويمدهم بضروب من النعم والخيرات والأرزاق وألوان من النبات والزهر والثمر. وكذلك مولد الرسول فى شهر الربيع، يشير إلى قدره العظيم، ومكانته السامية- ويبشر العباد والبلاد: بأنه أرسل رحمة للعالمين. وهداية للضالين. ومناجاة للهالكين. ونعمة للبشر أجمعين.

٣- وجود الشبه الدقيق بين الربيع والشريعة المحمدية، ففصل الربيع معتدل فى جوه. معتدل فى طول أيامه ولياليه ، سالم من العلل والأمراض، صاحى السماء، ضاحى الشمس، سافر الليل، متألق الكواكب، ناعش للأبدان، باعث للأرواح، مصباح للأمزجة، شارح للصدور.

وكذلك الشريعة الإسلامية، سمحة فى ظاهرها وباطنها، بيضاء ليلها كنهارها، لا تُعَطِّل العقول ، ولا تميت القلوب، ولا تقتل العواطف، ولا تحمل الناس فوق طاقتها، وسط بين الشرائع لا تفريط ولا إفراط، ولا تعطيل ولا إجحاف. ولا ضرر ولا ضرار، آخت بين حاجات الأجسام والأرواح ، وجمعت بين الدين والدنيا، مصادقا لما جاء فى دستورها الجامع: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾**.

شهر ربيع شهر ضيافة :

وقد يسأل سائل أيضاً: لماذا لم نأمر فى شهر ربيع بالاستزادة من العبادات والاجتهاد فى البر ، والتشمير للعمل الصالح ، والإكثار من الصدقات، كما فى شهر رمضان، والأيام والليالى الفاضلة المشهورة؟

وقد أجاب عن ذلك الإمام " ابن الحاج " المالكي بما يأتى :-

١- أن تلك الأزمنة حصلت لها الفضيلة فيها ، وهذا الشهر"ربيع" حصل له التشريف بظهور من جاءت الأعمال والخيرات التى حصلت بها الفضيلة على يديه وبسببه (ﷺ).

٢- أنه- عليه الصلاة والسلام- كما وصفه الله- عز وجل- فى كتابه العزيز حيث يقول فى صفته: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(الأعراف: ١٥٧). فكان دأبه طلب التخفيف عن أمته، مهما قدر على ذلك ، ووجد السبيل إليه فعله. فلما أن كان هذا الشهر اختص بظهوره (ﷺ) لم يكلف أمته زيادة عمل فيه، بل أشار إلى ذلك بالتنبيه عليه.

٣- أن أهل الآفاق قد حرم عليهم الصوم أيام "التشريق" وما ذلك إلا أن الحاج ضيف الله- تعالى- فوقعت الضيافة لأهل الأقاليم كلها كرامة لهم، فكيف بالزمن الذى ظهر فيه من شرع الله ذلك على يديه- صلوات الله وسلامه عليه.

تكريم يوم المولد وشهره :

أشار الرسول- (ﷺ) - إلى فضيلة اليوم الذى ولد فيه بقوله: لما سأله سائل عن صوم يوم الاثنين: ((**ذلك يوم ولدت فيه**)).

ولا مرية أن تشرف هذا اليوم متضمن تشريف هذا الشهر الذى منه هذا اليوم فيجب على كل مسلم يحب نبيه ويبجله، أن يحب ويجل يوماً وشهراً ولد فيهما صلى الله عليه وسلم ويفضلهما بما فضل الله به الأشهر والأيام والليالى التى عرف فضلها.وشهرت كرامتها. وفضيلة الأزمنة والأمكنة لا ترجع لذاتها، ولكن لما خصت به من أنواع العبادات والمعانى السامية ومن هنا كان واجباً علينا إذا أقبل هذا الشهر الكريم، أن نعظمه ونحترمه ونملأ أيامه، ونعمر لياليه بالصيام والقيام. والأعمال الصالحة،

والعبادات الروحية تقرباً إلى الله ورسوله، وننزهه عن العبث واللهو، والسماع المحرم والرقص والخلاعة والمجون، إلى غير ذلك مما يفعله الجهال وأهل البطالة الذين لا يقرون فضل ليلة المولد السامية المباركة.

بركة الاحتفال بالمولد:

يقول ابن الجوزى فى كتابه المسمى"عرف التعريف بالمولد الشريف": ومما جرب من خواص عمل المولد: أنه أمان فى ذلك العام وبشرى بنيل البغية والمراد. ويقول الإمام الشافعى: من جمع لمولد النبى (ﷺ) إخوانه وهيأ لهم مكاناً وعمل إحساناً، وصار سبباً لقراءاته، بعثه الله يوم القيامة مع الصديقين والشهداء والصالحين ويكون فى جنات النعيم.

من أقوال الصوفية:

يقول أبو محفوظ معروف الكرخى: من هيأ لأجل قراءة مولد النبى (ﷺ) طعاماً، وأطعم إخواناً، وأوقد سراجاً، ولبس جديدا وتبخر، تعظيما لمولده (ﷺ)، حشره الله- تعالى- يوم القيامة مع الفرقة الأولى من النبيين، وكان فى أعلى عليين.

ويقول تلميذه أبو الحسن السرى السقطى: من قصد موضعاً يقرأ فيه مولد النبي (ﷺ) فقد قصد روضة من رياض الجنة، لأنه ما قصد ذلك الموضع إلا لمحبته لرسول الله (ﷺ) وقد قال (ﷺ): ((**من أحبني كان معي فى الجنة**)). ضعيف (أنظر ضعيف الجامع) ٥٣٤٤.

ويقول تلميذه وابن أخته سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد: من حضر قراءة مولد النبي (ﷺ) وعظم قدره، فقد فاز بالأمان.

بشائر طلائع البدر المنور ﷺ

تضافرت لمولده عليه السلام كثير من الفؤول الحسنة التى تبهج النفوس وتتوقع منها كل خير، ولا يجتمع إلا لمولود مبارك ميمون، فقد ولدته أمه السيدة آمنة بنت وهب وفى اسمها الأمن من جميع المخاوف، واستقبلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف وفى ذلك الشفاء من الأدواء الحسية والمعنوية ومن الأمراض الاجتماعية وحضنته بركة المعروفة بأم أيمن الحبشية وفيها اليمن والبركة معاً، وأرضعته السيدة حليمة السعدية وفى ذلك الحلم والأناة والسعد والرخاء، وهذه المعانى الطيبة وإن كانت تفسر بروح الحب لهذا النبى العظيم فإنها تحولت بعد نشأته عليه السلام، وما تلاها من مراحل

عمره المختلفة إلى واقع ملموس تدركه النفوس وتراه العيون، ولا يخفى على ذى بصر أو بصيرة. ناهيك بما كان لدى من عندهم علم من الكتاب وما قرأوه من أمارات أرشدت إليها هذه الكتب التى أنزلت من قبل وأخبرت عن الزمان والمكان والسمات الخاصة بالرسول المنتظر والأمل المرتقب، ويتجلى ذلك فى ألسنة الصدق ويختفى فى منطق الحسد والحقد.

وتأتى طلائع اليمن فى بنى سعد بن بكر بادية حليمة السعدية وقد أخذته لإرضاعه فتسعد به أيما سعادة هى وزوجها وبنوها فتكثر عندها الخيرات وتتدفق لديها البركات وتحدث له عندها حادثة شق الصدر التى نقى الله بها قلبه، فسار فى حياته سيرة طيبة، لم ينغمس فيما انغمس فيه أترابة من الشباب من الميل إلى العبث والمجون، وجنح إلى العزلة والتأمل والاحتكام إلى العقل أمام غواية قومه بين المعتقدات الضالة الزائغة فلا يسجد لأى صنم رغم كثرتها وشيوع عبادتها حتى أكرمه الله بالوحى وكان من إعلام نبوته عليه السلام ما هو حسي تراه العين ، فقد ختم فى ظهره بختم النبوة، روى عن السائب بن يزيد قال: ذهبت بي خالتى إلى النبي فقالت: « يا رسول الله إن ابن اختى وجع فمسح رأسي ودعا لي بالبركة ثم توضأ فشربت من وَضوئه ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتمه بين كتفيه مثل زر الحجلة» رواه الشيخان.

وعن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال: « رأيت خاتماً فى ظهر رسول الله كأنه بيضة حمام ». رواه مسلم ولفظه: كان خاتم رسول الله الذى بكتفيه غدة حمراء مثل بيضة الحمام.

وروى عن أبى موسى: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه النبى محمد فى أشياخ قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم فجاء الراهب وهم يحملون رحالهم فصار يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبى ﷺ وقال: هذا سيد المرسلين هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش ما علمك بهذا؟ فقال: إنكم حين أشرفتم على العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ولا يسجدان إلا لنبى، إنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.

***

الباب الثانى

معجزات الرسول ﷺ

أولا : فيما خصه الله به من المعجزات :

فيما خصه الله تعالى به ﷺ من المعجزات وشرفه بها على سائر الأنبياء من الكرامات والآيات البينات.

اعلم أن الله تعالى قد خص نبينا محمداً ﷺ بأشياء لم يعطها لنبي قبله وما خص نبى بشيء إلا وقد كان لسيدنا محمد (ﷺ) مثله فإنه أوتى جوامع الكلم وكان آدم بين الروح الجسد وغيره من الأنبياء لم يكن نبيا إلا فى حال نبوته وزمان رسالته ولما أعطى هذه المنزلة علمنا أنه صلى الله عليه وسلم المد لكل إنسان كامل مبعوث ويرحم الله شرف الدين الأبوصيرى حيث قال:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نـــوره بهم

فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

قال العلامة ابن زروق يعنى أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل فإنما اتصلت به من نور محمد (ﷺ).

. أما آدم عليه السلام فالمقصود من خلقه خلق نبينا محمد (ﷺ) فى صلبه فسيدنا محمد المقصود وآدم الوسيلة. وأما سجود الملائكة له عليه السلام فقد قال الإمام فخر الدين فى تفسيره إن الملائكة أمروا بالسجود لآدم عليه السلام لأجل أن نور محمد (ﷺ) كان فى جبهته. وقال الإمام سهل بن محمد هذا التشريف الذى شرف الله تعالى به محمداً (ﷺ) بقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾**(الأحزاب: ٥٦). الآية أتم وأجمع من تشريف آدم بأمر الملائكة بالسجود له لأنه لا يجوز أن يكون الله تعالى مع الملائكة فى ذلك التشريف فتشريف يصدر عنه تعالى وعن الملائكة والمؤمنين أبلغ من تشريف تختص به الملائكة.

أما تعليم آدم أسماء كل شيء فقد قال رسول الله (ﷺ): ((**مثلت لى أمتى فى الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها**)). أخرجه الديلمى عن أبى رافع.

وأما إدريس عليه الصلاة السلام فرفعه الله مكاناً عليّاً وأعطى سيدنا

محمداً (ﷺ) المعراج ورفع إلى مكان لم يرفع إليه غيره.

وأما نوح عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى ومن آمن معه من الغرق ونجاه من الخسف وأعطى سيدنا محمداً (ﷺ) أنه لن تهلك أمته بعذاب من السماء قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. (الأنفال: ٣٣).

وفى تفسير الفخر الرازي: أكرم الله نوحاً بأن أمسك سفينته على الماء وفعل بمحمد (ﷺ) أعظم منه روى أنه ﷺ كان على شط ماء وقعد عكرمة بن أبى جهل فقال إن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذى فى الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق فأشار إليه عليه الصلاة والسلام فانقلع الحجر من مكانه وسبح حتى صار بين يدى رسول الله (ﷺ) وشهد له بالرسالة فقال له النبى (ﷺ) يكفيك هذا فقال حتى يرجع إلى مكانه.

وأما إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فكانت عليه نار نمروذ برداً وسلاماً فأُعطى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نظير ذلك إطفاء نار الحرب عليه الصلاة والسلام وناهيك بنار حطبها السيوف ووهجها الحتوف وموقدها الحسد ومطلبها الروح والجسد قال الله تعالى :﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة: ٦٤).

(وروى النسائي) أن محمد بن حاطب قال: كنت طفلا فانصبت القدر على واحترق جلدي كله فحملني أبى إلى رسول الله (ﷺ) فتفل عليه الصلاة والسلام عليَّ جلدى ومسح بيده على المحترق وقال: أذهب البأس رب الناس فصرت صحيحاً لا بأس بى.

وأما ما أعطيه إبراهيم عليه السلام من مقام الخلة فقد أعطيه نبينا عليه الصلاة والسلام وزاد بمقام المحبة فقد روى فى حديث الشفاعة أن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذا قيل له اتخذك الله خليلاً فاشفع لنا قال إنما كنت خليلاً من وراء وراء اذهبوا إلى غيرى إلى أن تنتهى الشفاعة إلى النبى محمد (ﷺ) فيقول أنا لها أنا لها وهذا يدل على أن نبينا عليه الصلاة والسلام كان خليلاً مع رفع الحجاب وكشف الغطاء ولو كان خليلاً من وراء وراء لاعتذر كما اعتذر إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ومما أعطيه إبراهيم عليه السلام انفراده فى أهل الأرض بعبادة الله تعالى وتوحيده وكسر الأصنام وقد أعطى سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كسرها

بقضيب ليس مما يكسر إلا بقدرة إلهية حينما دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول: ﴿ وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾(الإسراء: ٨١)... حتى سقطت. رواه الشيخان.

ومما أعطيه الخليل عليه السلام بناء البيت الحرام وقد أعطى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن قريشاً لما بنت البيت بعد تهدمه ولم يبق إلا وضع الحجر تنافسوا على هذا الفخر ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل فكان الداخل سيدنا محمداً (ﷺ) فقالوا هذا الأمين فحكموه فى ذلك فأمر ببسط ثوب ووضع الحجر فيه ثم قال يرفع كل بطن بطرف فرفعوه جميعاً ثم أخذه سيدنا محمد (ﷺ) فوضعه فى موضعه فادخر الله تعالى له ذلك المقام ليكون منقبة له على مدى الأيام.

وأما ما أعطيه موسى عليه الصلاة والسلام من قلب العصا حية غير ناطقة فقد أعطى سيدنا محمد (ﷺ) حنين الجذع.وحكى الإمام الرازى فى تفسيره وغيره لما أراد أبو جهل أن يرميه عليه الصلاة والسلام بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين فانصرف مرعوباً. وأما ما أعطيه موسى عليه السلام من اليد البيضاء وكان بياضها يغشى البصر فأعطى سيدنا محمد (ﷺ) أنه لم يزل نوراً ينتقل فى أصلاب الآباء وبطون الأمهات من لدن آدم إلى أن انتقل إلى عبد الله أبيه. وأعطى (ﷺ) قتادة بن النعمان وقد صلى معه العشاء فى ليلة مظلمة ممطرة عرجوناً وقال انطلق به فإنه سيضيء لك من بين يدك عشراً ومن خلفك عشراً فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه به حتى يخرج فإنه الشيطان فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد وضربه به حتى خرج. رواه أبو نعيم.

وأخرج البيهقى وصححه الحَاكم عن أنس قال كان عبادة بن بشر وأسيد بن حضير عند رسول الله (ﷺ) فى حاجة حتى ذهب من الليل ساعة وهى ليلة شديدة الظلمة ثم خرجا وبيد كل واحد منهم عصا فأضاءت لهما عصا أحدهما فمشيا فى ضوئها حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى كل واحد منهما فى ضوء عصاه حتى بلغ هديه. رواه البخاري بنحوه في الصحيح. (وأخرج البخاري) فى تاريخه والبيهقى وأبو نعيم عن حمزة الأسلمى قال كنا مع النبى (ﷺ) فى سفر فتفرقنا فى ليلة ظلماء فأضاءت أصابعى حتى جمعوا عليها ظهرهم. ما يركبونه.وما هلك منهم وإن أصابعى لتنير.

ومما أعطيه موسى عليه الصلاة والسلام انفلاق البحر له وقد أعطى نبيا صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر فموسى تصرف فى عالم الأرض وسيدنا محمد (ﷺ) تصرف فى عالم السماء والفرق بينهما واضح وهذا أعظم من انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام. ومما أعطيه موسى عليه الصلاة والسلام إجابة دعائه وقد أعطى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك ملا يحصى. ومما أعطيه موسى عليه الصلاة والسلام تفجير الماء له من الحجارة وقد أعطى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن الماء تفجر بين أصابعه وهذا أبلغ لأن الحجر من جنس الأرض التى ينبع منها الماء ولم تجر العادة بنبع الماء من اللحم. ومما أعطى موسى عليه الصلاة والسلام الكلام وقد أعطى سيدنا محمد (ﷺ) مثله ليلة الإسراء والمعراج وزيادة الدنو وكان مقام المناجاة فى حق نبينا (ﷺ) فوق السماوات العُلَى وسدرة المنتهى والمستوى وحجب النور والرفرف ومقام المناجاة لموسى عليه السلام طور سيناء.

ومما أعطيه هارون عليه الصلاة والسلام فصاحة اللسان وقد كان نبينا (ﷺ) من الفصاحة والبلاغة بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يُجهل.

وأما ما أعطيه يوسف عليه الصلاة والسلام من شطر الحسن فقد أعطى نبينا محمد (ﷺ) الحسن كله. وأما ما أعطيه يوسف عليه الصلاة والسلام من تعبير الرؤيا فالذى نقل عنه من ذلك ثلاثة منامات **أحدها** حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر **والثانى** منام صاحبى السجن **والثالث** منام الملك وقد أعطى نبينا محمد (ﷺ) من ذلك مالا يدخل تحت حصر ومن تصفح الأخبار وتتبع الآثار وجد من ذلك العجب العجاب.

وأما ما أعطيه داود عليه الصلاة والسلام من تليين الحديد له فكان إذا مسح الحديد لان فقد أعطى نبينا محمد (ﷺ) أن العود اليابس اخضر فى يده وأورق. ومسح صلى الله عليه وسلم شاة أم معبد الجرباء فبرأت ودرت.

وأما ما أعطيه سليمان عليه الصلاة والسلام من كلام الطير وتسخير الشياطين والريح والملك الذى لم يعطه أحد بعده فقد أعطى سيدنا محمد (ﷺ) مثل ذلك وزيادة أما منطق الطير والوحش فنبينا (ﷺ) كلمه الحجر وسبح فى كفه الحصى وهو جماد وكلمه ذراع الشاة المسمومة وكلمة الظبى وشكى إليه البعير وروى أن طيراً فُجع بولده

فجعل يرفرف على رأسه (ﷺ) ويكلمه فيقول أيكم فجع هذا بولده فقال رجل أنا فقال اردد ولده. ذكره الرازي ورواه أبو داود. وقصة كلام الذئب مشهورة. وأما الريح التى كان غدوها شهر تحمله حيث أراد من أقطار الأرض فقد أعطى سيدنا محمد (ﷺ) البراق الذى هو أسرع من الريح بل أسرع من البرق الخاطف فحمله من الفرش إلى العرش فى ساعة زمنية وأقل مسافة ذلك سبعة آلاف سنة وتلك مسافة السموات وأما إلى المستوى وإلى الرفرف فذلك ما لا يعلمه إلا الله تعالى وأيضاً فالريح سخرت لسليمان لتحمله إلى نواحى الأرض ونبينا (ﷺ) زويت له الأرض أى جمعت حتى رأى مشارقها ومغاربها وفرق بين ما يسعى إلى الأرض وبين ما تسعى له الأرض.

وأما ما أعطيه من تسخير الشياطين فقد روى أن شيطاناً اعترض سيدنا محمداً (ﷺ) وهو فى الصلاة فأمكنه الله منه وربطه بسارية من سوارى المسجد وخير مما أوتى سليمان ومن ذلك إيمان الجن بمحمد (ﷺ). وأما عد الجن من جند سليمان فى قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ﴾ (النمل: ١٧). فخير منه عد الملائكة جبريل ومن معه من جملة أجناده عليه الصلاة والسلام باعتبار الجهاد وباعتبار السواد على طريق الأجناد.

وأما عد الطير من جملة أجناده فأعجب منه حمامة الغار وتوكيرها فى الساعة الواحدة وحمايتها له من عدوه. وأما ما أعطيه من الملك فنبينا (ﷺ) خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختار (ﷺ) أن يكون نبياً عبداً.

وأما ما أعطيه عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فقد أعطى سيدنا محمد (ﷺ) أنه رد العين إلى مكانها بعدما سقطت فعادت أحسن ما كانت. وفى دلائل النبوة للبيهقى قصة الرجل الذى قال للنبى (ﷺ) لا أومن بك حتى تحيى لى ابنتى فأتى (ﷺ) قبرها فقال يا فلانة فقالت لبيك وسعديك يا رسول الله (الحديث) وقد سبح الحصى فى كفه ﷺ وحن الجذع لفراقه وذلك أبلغ من تكليم الموتى لأن هذا من جنس ما لا يتكلم.

وأما ما أعطيه عيسى عليه الصلاة والسلام من أنه كان يعرف ما يخفيه الناس فى بيوتهم فقد أعطى نبينا محمد (ﷺ) من ذلك مالا يحصى. وأما ما أعطيه عيسى عليه

الصلاة والسلام من رفعه إلى السماء فقد أعطى نبينا (ﷺ) ذلك ليلة المعراج وزاد فى الترقى لمزيد الدرجات وسماع المناجاة فى الحضرة المقدسة. وقد خُص صلى الله عليه وسلم من خصائص التكريم بما لم يُعْطَه أحد من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام وقد روى جابر عن النبى (ﷺ) أنه قال: **((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))** (صحيح انظر صحيح الجامع ١٠٥٦) ورواه البخاري وفى رواية وبعثت إلى الناس كافة وفى رواية (الإمام أحمد) **((وأعطيت الشفاعة فاختزنتها لأمتى فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً))**. وفى (حديث مسلم) زيادة **((أعطيت جوامع الكلم وختم بى النبيون))** وفى حديث آخر(لمسلم) زيادة **((وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة))** (وفى حديث ابن خزيمة والنسائى) زيادة **((وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة ومن كنز تحت العرش))** يشير إلى ما حطه الله تعالى عن أمته من الإصر وتحميل مالا طاقة لهم به ورفع الخطأ والنسيان ومعنى الإصر الأمر الثقيل. وفى (حديث لأحمد) زيادة **((أعطيت مفاتيح الأرض))** وحديث (أحمد) **((وجعلت أمتى خير الأمم))** وعند (البزار) زيادة **((غفر لي ما تقدم من ذنبى وما تأخر وأعطيت الكوثر وإن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه))**.

ثانياً: المعجزات الدالة على إثبات رسالته (ﷺ):

المعجزات الدالة على إثبات رسالته عليه الصلاة والسلام كثيرة ومتعددة، وسوف نوجز الكلام عن معجزته الكبرى وهى القرآن الكريم لنستوفى حقها فى البحث والدراسة ونجمل المعجزات الأخرى خلال ما يأتي من سطور.

١- تسليم الحجر والشجر عليه:

فمن تلك المعجزات تسليم الحجر والشجر عليه، فقد روى عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله (ﷺ) إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث إني لأعرفه الآن، وقال على كنت مع النبى عليه الصلاة والسلام بمكة فخرجنا فى بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله (رواه الترمذي) صحيح الجامع ٢٤٨٧.

٢- **ومنها نبع الماء من بين أصابعه :**

عن أنس قال: أتى النبي بإناء وهو بالزوراء مع أصحابه فوضع يده فى الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم.

قال قتادة: قلت لأنس كم كنتم؟ قال ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة. أخرجه الشيخان.

وعن أنس رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله (ﷺ) وحانت صلاة العصر فالتمس الوَضوء فلم يجده فأتى رسول الله بوَضوء فوضع يده فى ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم. رواه الشيخان.

وعن جابر قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبى بين يديه ركوة فتوضأ فاندفع الناس نحوه فقال:ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده فى الكوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا ، قيل كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمسة عشر مائة. رواه الشيخان.

٣- **ومنها تكثير الطعام وأمثلتها كثيرة لا تعد ولا تحصى :**

ومن هذه المعجزات تسبيح الطعام بين يديه :

وهذا من المعجزات الباهرة للنبى، فعن عبد الله قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله (ﷺ) فى سفر فقَلَّ الماء فقال: اطلبوا فضلة من ماء فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل رسول الله (ﷺ) يده فى الإناء ثم قال: حى على الطَّهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُأكل. رواه البخاري.

ولفظ الترمذى: كنا نأكل الطعام مع النبى (ﷺ) ونحن نسمع تسبيح الطعام.

٤- **ومنها حنين الجذع له عليه الصلاة والسلام :**

عن جابر قال: كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل فكان النبى (ﷺ) إذا خطب يقوم إلى الجذع منها، فلما صنع المنبر صعد عليه ، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار حتى جاء النبى فوضع يده عليها فسكنت وفى رواية فلما كان يوم الجمعة ورفع إلى المنبر صاحت النخلة. رواه البخاري ، والترمذي. بلفظ "فحن الجذع حنين الناقة فنزل النبي فمسكه فسكن".

٥- ومنها انشقاق القمر:

انشقاق القمر من آيات الله لرسوله عليه الصلاة والسلام ومعجزة من المعجزات النيرة، فعن أنس بن مالك أن الكفار سألوا رسول الله آية فانشق القمر مرتين، وكذا عن ابن عباس قال: انفلق القمر فلقة ذهبت وفلقة بقيت ، وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتى القمر وصدق الله العظيم إذ يقول :﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۞ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾. (القمر: ١- ٢).

ثالثاً: المعجزة الكبرى القرآن

أما معجزته الكبرى فهى القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو معجزة الرسول الأولى وهو معجزة خالدة تشهد على صدق النبى عليه الصلاة والسلام على تعاقب الأجيال ومر القرون للناس جميعاً من كان منهم ومن سيكون إلى آخر الزمان وإلى أن تقوم الساعة ، فهو بصائر تهدى ورحمة تفيض ، هذا الكتاب الذى لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما بلغه ، وكان الجاهليون يعرضون عنه ويطلبون هذه الخوارق المادية مثل ما جرى على أيدي الرسل من قبل حينما كان العقل البشرى فى طفولته والرسالات غير عالمية لا تصلح إلا لزمانها ومكانها وللذين يشاهدونها أما القرآن الكريم فهو منهج يتناول قضايا الوجود بحيث يأخذ بيد الفطرة الإنسانية فى مراحلها المختلفة ويصعد بها إلى قمة المعرفة والاستقامة واليقين والثقة وفى الأمان والطمأنينة فتستجيب الفطرة البشرية ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(الإسراء: ٨٨).

لقد خرَّج هذا الكتاب جيلاً من البشر فريداً، لم يتكرر بعد فى تاريخ البشرية، جيل النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام، لم يطلبوا حاجة لنفوسهم وحياتهم، والمجتمع الذى يعيشون فيه خارج القرآن، بل كان يرجعون إلى كتاب الله فى كافة الشئون، ولهذا سادوا العالم شرقاً وغرباً وأخضعوا لسيوفهم رقاب الأكاسرة والقياصرة، ورفعوا عروشهم على نواصى الشرق والغرب، ولقد أدركت الصهيونية العالمية والمسيحية الصليبية والشيوعية المخربة بعد التجربة الطويلة، أن لا طاقة لهم بأهل

هـذا الكتـاب مـا ظلـوا سـائرين علـى نهجـه وعـاكفين علـى تدارسـه وتطبيقـه فـى واقـع حيـاتهم. إن القـرآن كتـاب كامـل فـى موضـعه، وموضـوعه أضـخم مـن تلـك العلـوم كلها، لأنه هو الإنسان ذاته الذى يكشف هذه المعلومات وينتفع بها، والبحث والتجربة والتطبيق من خصائص العقل فى الإنسان.

والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، كما يعالج بناء المجتمع الإنسانى الذى يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات الكامنة فيه، وبعد أن يوجد للإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذى يسمح بالنشاط يتركه القرآن يبحث ويجرب ويخطئ ويصيب فى مجال العلم والبحث والتجريب وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح أما ما حواه القرآن الكريم فيمكن القول بإيجاز فإنه بجانب المواعظ والأخبار كان يحتوى على نُظم الإسلام وقوانينه الخاصة بالدين والدنيا معاً، وقد ورد فى قوله تعالى: **﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾**(الأنعام: ٣٨).

أى أنه لا يوجد أمر ذو بال سواء كان صغيراً أو جليلاً ، إلا وقد كشف القرآن عنه النقاب إجمالاً أو تفصيلاً حسب أهميته، فهو مصدر إعجاز، ومصدر تشريع. ومصدر أخلاق، وأمدنا القرآن الكريم بمادة غزيرة كانت بمثابة التنظيم الكامل الشامل الذى يوجه حياة الإنسانية اليوم وغدا إلى قيام الناس لله رب العالمين.

ويمكن أن نثبت هنا بإيجاز بأن محتويات القرآن الكريم وسوره نزلت فى عهدين، أولهما العهد المكي وقد نزل خلاله حوالي الثلثين، وأما الطور المدنى وهو يبدأ منذ الهجرة المحمدية وظل إلى نهاية حياة النبي فنزل فيه بقية القرآن، وقد اتجه الجانب المكي من القرآن الكريم إلى إبراز توحيد الله وإقامة الدليل على وحدانيته تعالى.

كما اهتم هذا الجانب بالدعوة لمكارم الأخلاق وضرب الأمثال بالأمم الماضية ، وما حصل لها عندما كذبت الرسل وشرع تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التى كانت تقدم إلى الأوثان والأصنام ويذبح باسمها.

أيضا تقرير الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب، وفتح باب التوبة للخطائين، وتوضيح أن العدل عن الإثم إلى البر، وسلوك سبيل الاستقامة كفيلة بأن

تطهر الإنسان وترشحه للنعيم المقيم، كذلك شرعت فى هذه الفترة المكية عبادات عملية تصرف عن الثنوية وتوجه المرء إلى الله وحده.

لقد شرع الله فريضة الصلاة منذ أوائل الدعوة، وكان الرسول يؤديها مع زوجته السيدة خديجة، ثم أمر المسلمين بأدائها، كذلك شرعت الزكاة وإن لم تحدد نسبتها ومقاديرها إلا بعد الهجرة، وفى أواخر العهد المكى وجهت آيات القرآن إلى وجوب الدفاع عن النفس والمبادئ، فشرع قتال المعتدين، ودفع البغى والظلم بالقوة حتى لا تكون فتنة، وإن كان لم تُعلن حرب أو تبعث سرايا قبل مرور عام كامل على وصول النبى (ﷺ) والمؤمنين إلى المدينة.

وبعد أن شرعت الصلاة فى مكة لم يزد الكتاب فى تفصيلها شيئاً بالمدينة، إلا أنه شرعت صلاة الجمعة وصلاة الخوف، ثم زاد المسلمين حثّاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها، وشرع الصيام فى السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذى نزل فيه القرآن لأول مرة، وشرع الحج فى السنة السادسة.

وإن كان قد وضح القرآن الكريم من سورة الحج المكية شيئاً من تاريخ الحج وغايته، كما ورد فى الكتاب الكريم الشرائع الاجتماعية التى تتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها، كالزواج وتحريم التزوج بنوع من النساء، وأباح التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع بشرط العدل بينهن، وإعطاء النساء مهراً عند التزوج، وأوصى الرجل بمعاشرة امرأته، بالمعروف، وشرع الطلاق وعدد الطلقات، وفصل الكتاب أمر الميراث، وجعل للنساء منه نصيباً مفروضا، بعد أن كانت العرب لا تورث النساء.

واهتم الكتاب الكريم بأمر اليتامى، وأمر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها، وبين الوقت الذى يؤتون فيه أموالهم، وبذلك وبأمثاله وضح الكتاب أساس النظام العائلى القوى وتكوين الأسرة، لأنها اللبنة الأولى فى بناء المجتمع الإسلامي الذى يجب أن يقوم على أساس متين.

أما ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض، فقد وضح الكتاب الكريم أساس المعاملات فى مواضع كثيرة، فأمر بالوفاء بالعقود والقيام بجميع الالتزامات التى يلتزم بها المرء لأى إنسان، كما نهى عن أكل الربا أشد النهى، ومثل آكليه بأشنع

تمثيل- كما نقرأ ذلك فى سورة البقرة - ثم بين شكل التعامل بين الناس فى أطول آية فى القرآن وهى آية الدَّيْن، وأمر بكتابة الدين والاستشهاد عليه، وجعل الرهن وثيقة فى الذمة، إذ لم يوجد كاتب أو شهيد، ونهى عن أن تبدى النساء زينتهن، إلا ما ظهر منها، وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وأمرهن كذلك بإدناء جلابيبهن ليكون شعاراً للحرائر حتى لا يعترضهن أحد فى الطريق.

كما أن يُحَيِّى الإنسان أخاه بأحسن تحية، إلى غير ذلك من الآداب الخلقية التى تقوى الصلات، ويتم بها التعاطف والتواد، وفى هذه الفترة أيضاً شرعت الحدود والقصاص فالحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق فى القصاص، أما الحدود فقد ذكر حد الزنا وجعله الكتاب الكريم مائة جلدة لغير المحصنين والرجم للمحصن، وحد القذف وجعله الكتاب ثمانين جلدة، وحد السرقة وجعله الكتاب قطع اليد، وحد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً وعقابهم أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض.

ولا شك فإن القرآن الكريم حقق معجزة كبرى فى المجتمع بل المجتمعات الإسلامية من أدنى البلاد إلى أقصاها، ونقلهم من نمط إلى نمط وشمل تأثيره الأخلاق والنظم التى تهم شئون الدين وأمور الدنيا.

وبعد: لقد كان القرآن الكريم المعجزة الكبرى للنبى وكان عليه السلام آية من آيات الله وطاقة هائلة عجيبة دفعت برسالة القرآن عبر الأجيال والقرون إلى أن يلقى الناس ربهم، لقد كان سراجاً منيراً وضيئاً متألقاً يبهرك من كل جانب وقرآناً نابضاً حيّاً متحركاً، وتقول عنه السيدة عائشة رضى الله عنها وقد سئلت عن خلقه: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه فكنت تراه فى كل شيء وكأنه متخصص فيه، متفرغ إليه بكليته، ضرب المثل الأعلى لإنسانية الإنسان، ونهض بعقيدة صالحة لكل طور من أطوار البشرية على تعاقب الأطوار والعصور على سنة العدل التى يعبر عنها فى العصر الحاضر بتكافؤ الفرص الذى يلغى كل تفريق ويسقط

كل حجة، ويقضى على كل تمييز، إلا امتياز ثابت صحيح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

والنبى (ﷺ) هو النور الساطع والبحر الزاخر، يأخذ منه كل بقدر طاقته ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١). وحتى يتحقق خلقه فى واقع الناس فواجب الاحتفاء به، لأن ذلك احتفاء بمواضع القدوة، وامتثالاً لما بلغ عن ربه وتنفيذاً للقرآن الذى تخلق به، وهذا ولا شك سبيلنا إلى العزة والكرامة كي يعود للإسلام مجده الغابر، وهو أيضاً طريقنا الذى إذا سلكناه اكتسبنا حبه ورضاه.

فاللهم اجعلنا من الذين قال الله فيهم:﴿ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)..صدق الله العظيم.

وللقرآن أسماء كثيرة وقد وردت هذه الأسماء فى آيات متعددة من كتاب الله عز وجل. ونورد فيما يلى أسماء القرآن ومعانيها:

أسماء القرآن ومعانيها :

· سمي الله سبحانه وتعالى القرآن بخمسين اسماً ذكرت جميعها فى آياته، وهى على النحو التالى:

١- سماه كتاباً فقال: ﴿ حم ۞ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ (الدخان: ١، ٢). وذلك لأنه جمع أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة

٢- وسماه قرآناً: فقال:﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة: ٧٧). لكونه جمع ثمرات الكتب المنزلة السابقة، ولأنه جمع أنواع العلوم كلها بمعان كما قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨).

٣- وسماه كلاماً: فقال: ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ﴾(التوبة: ٦). لأنه يؤثر فى ذهن السامع فائدة لم تكن عنده.

٤- . سماه نوراً: فقال:﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾(النساء: ١٧٤). لأنه يدرك به غوامض الحلال والحرام.

٥- سماه هدى: فقال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾(لقمان: ٣). لأن فيه الدلالات إلى الحق والتفريق بين الحق والباطل.

٦- سماه رحمة: فقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ (يونس: ٥٨). لأن من فهمه وعقله كان له رحمة.

٧- سماه فرقانا: فقال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (الفرقان: ١). لأنه فرق بين الحق والباطل والمسلم والكافر والمؤمن والمنافق.

٨- سماه شفاء:فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢). لأنه من آمن به كان له شفاء من سقم الكفر ومن علمه وعمل به كان له شفاء من سقم الجهل.

٩- وسماه موعظة: فقال: ﴿قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (يونس: ٥٧). لما فيه من المواعظ والتحذير والعبر من أخبار الأمم الماضية.

١٠- وسماه ذكرا: فقال: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ (الأنبياء: ٥٠). لما فيه من الذكر والشرف قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ (الأنبياء: ١٠). أي شرفكم.

١١- وسماه حكيما: فقال: ﴿الر ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس: ١، ٢). لأن آياته أحكمت بذكر الحلال والحرام فأحكمت عن الإتيان بمثلها ومن حكمته أن مَن علمه وعمل به بَعُدَ عن الفواحش.

١٢- وسماه مهيمنا: فقال: ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨).لأنه الشاهد للكتب المتقدمة بأنها من عند الله.

١٣- وسماه تنزيلا: فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء: ١٩٢).لأنه منزل من عند الله لفظا ومعني بواسطة جبريل عليه السلام على قلب النبيَ (ﷺ) قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾(الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥).

١٤-. وسماه روحا: فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢) لما فيه من الحياة.

١٥- وسماه وحيا: فقال :﴿ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾(الأنبياء: ٤٥). ومعناه تعريف الشيء خفية سواء كان بالكلام كالأنبياء والملائكة أو بالإلهام كالنحل وإشارة النمل.

١٦- وسماه مثاني: فقال: ﴿ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ ﴾ (الزمر: ٢٣). يصدق بعضه بعضا. وفيه بيان قصص الكتب الماضية.

١٧- وسماه بصائر: فقال: ﴿ هَـٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾(الجاثية: ٢٠). لأنه موجه للبصر والبصائر ، وهو جامع لمعاني أغراض المؤمنين.

١٨- وسماه بيانا: فقال: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾(آل عمران: ١٣٨). لأنه مبين فيه أنواع الحق وكشف أدلته.

١٩- وسماه عزيزا: فقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾(فصلت: ٤١). لأنه معجز ويتحدى من يروم أن يأتيَ بمثله فيتعذر ذلك عليه لقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ٨٨)..

٢٠- وسماه بشيرا ونذيرا: فقال: ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾(فصلت: ٤). لأنه بشر بالجنة وأنذر من النار.

٢١- وسماه مبينا: فقال: ﴿الر ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾(يوسف: ١، ٢) .لأنه أبان وفرق بين الحق والباطل.

٢٢- وسماه مجيدا: فقال: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾(البروج: ٢١). والمجيد الشريف فَمِنْ شَرَفِهِ أنه حُفظ عن التغيير والتبديل والزيادة والنقصان وجُعِلَ معجزا في نفسه عن أن يؤتَى بمثله.

٢٣- وسماه متشابها: فقال: ﴿ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً﴾ (الزمر: ٢٣). أي يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا.

٢٤- وسماه بلاغا: فقال: ﴿ هَـٰذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ﴾(ابراهيم: ٥٢). لأنه كان في الإعلام والإبلاغ وأداء الرسالة.

٢٥- وسماه قصصا: فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾(يوسف: ٣). لأن فيه قصص الأمم الماضية وأخبارهم.

٢٦- وسماه مصدقا: فقال: ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾(المائدة: ٤٨). لأنه صدق الأنبياء الماضين وكتبهم قبل أن تغير وتبدل.

٢٧- وسماه كريما: فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾(الواقعة: ٧٧).

٢٨- وسماه حكمة: فقال: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾(القمر: ٥).

٢٩- وسماه عليا: فقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الزخرف: ٤١).

٣٠- وسماه مباركا: فقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾(ص: ٢٩).

٣١- وسماه حبلا: فقال: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً﴾(آل عمران: ١٠٣).

٣٢- وسماه الصراط المستقيم: فقال: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾(الأنعام: ١٥٣).

٣٣- وسماه القيم: فقال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ۞ قَيِّماً﴾(الكهف: ١، ٢).

٣٤- وسماه فصلا: فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾(الطارق: ١٣).

٣٥- وسماه نبأ عظيما: فقال: ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾(النبأ: ١، ٢).

٣٦- وسماه أحسن الحديث: فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾(الزمر: ٢٣).

٣٧- وسماه عربيا: فقال: ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً﴾(الزمر: ٢٨).

٣٨- وسماه قولا: فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾(القصص: ٥١).

٣٩- وسماه علما: فقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾(الرعد: ٣٧).

٤٠- وسماه حقا: فقال: ﴿إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾(آل عمران: ٦٢).

٤١- وسماه الهادي: فقال: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾الإسراء: ٩).

٤٢- وسماه عجبا: فقال: ﴿قُرْآناً عَجَباً ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾(الجن: ١، ٢).

٤٣- وسماه تذكرة: فقال: ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾(الجن: ٥٤).

٤٤- وسماه بالعروة الوثقى: فقال: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾(لقمان: ٢٢).

٤٥- وسماه صدقا: فقال: ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ﴾(الزمر: ٣٣).

٤٦- وسماه عدلا: فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾(الأنعام: ١١٥).

٤٧- وسماه إيمانا: فقال: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾(آل عمران: ٩٣).

٤٨- وسماه أمرا: فقال: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾(الطلاق: ٥).

٤٩- وسماه بشرى: فقال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾(النمل: ٢).

٥٠- وسماه زبورا: فقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾(الأنبياء: ١٠٥).

* * *

الباب الثالث

مصاحبة جبريل لرسول الله (ﷺ)

* صحب جبريل عليه السلام رسول الله (ﷺ). زهاء ثلاثة وعشرين عاما، هى مدة الرسالة المحمدية التى نزل فيها الوحي، وتم التنزيل، وكمل الدين. دراسات قرآنية من أسرار النبوات فى القرآن بقلم الأستاذ: حسن إسماعيل منصور.

ولم يثبت أن جبريل صحب أحدا من العالمين مثل هذه المدة حاملا لآيات القرآن، تاليا إياها على الرسول الأمين، مصاحبا له فيها، يراه رأى العين ويحادثه ويأخذ عنه.

فما من آية قرآنية نزلت على الرسول إلا بواسطة جبريل، ولا غرو فى ذلك فهو أمين الوحي، ورسول السماء، ومبلغ الرسالات وبخاصة القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۞ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ۞ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۞ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾(الشعراء: ١٩٢ — ١٩٩).

فجبريل الملك الكريم، ذو المنزلة عند رب العالمين، المطاع ثم الأمين فى الملأ الأعلى المقربين نزل بهذا القرآن بلسان عربي مبين، سالم من الدنس، والزيادة والنقص، ليكون النبي الأمين من المنذرين، ينذر به بأس الله ونقمته على من خالفه، ويبشر به المؤمنين المتبعين له.

هذا القرآن الذى أنزلناه إليك بلسانك العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون واضحا ظاهرا قاطعا للعذر، مقيما للحجة، دليلا إلى المحجة.

"وإنه لفى زبر الأولين " موجود فى كتبهم المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيبا فى ملته، ومبشرا بالاسم ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾(الصف: ٦) والمبشر هو المسيح ابن مريم عليهما السلام.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۞ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٠ – ٢١٢).

وهذه من أسرار النبوة فى خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

فقد عزل الله الجن عن استراق السمع لهذا القرآن، وحجبهم عنه مدة نزوله وقد ملأ لهم السماء حرسا شديدا وشهبا ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (الحجر: ١٨).

وهذا رحمة من الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله.

وأول معرفة لجبريل وصحبته للرسول، كانت بغار حراء حين بُدئ بالوحى، ولم يكن الرسول الكريم يدرى من أمر ذلك الوحى شيئاً حين فجأه فى الغار وحيداً يناجى ربه فى جوف الليل وهدأة السكون ولم يخطر بباله قرآن، ولم ير ملكاً من قبل.

فهو فى غاره عابد متحنث، خاشع متبتل. وكانت أولى الآيات ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(العلق: ١ – ٥).

وعرفه بنفسه، وذكره باسمه: يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل.

وقد كان الخوف، ثم الصحبة، ثم الشوق، ثم التلهف من رسول رب العالمين لرؤية جبريل ليزيده وحياً، ويكمله ديناً، ويبلغه قرآناً.

ثم توالت اللقاءات، وازدادت المعرفة، وملئ صدر الرسول بالوحى كتاباً وسنة إلى أن أصبح كله فى صدره، ويعارضه جبريل كل عام مرة ثم عارضه فيه مرتين من عامه الأخير، يبين له موضع كل آية، وترتيب كل سورة، بعد أن تم القرآن نزولاً فأصبح فى صورته التى هى عليها الآن.

ولم يحصل ذلك لنبى غير نبى الإسلام. فصحف إبراهيم وتوراة موسى، وإنجيل عيسى كلها وصايا وحيا، وكذلك زبور داوود.

فقد نزلت التوراة على موسى مرة واحدة مكتوبة فى الألواح﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾(الأعراف: ١٤٥). ولم ينزل بها جبريل منجمة كما نزل

القرآن، وكذلك إنجيل عيسى، وزبور داود عليهما السلام. فكانت كلها وصايا، ولم ينعموا جميعاً بصحبته هذه الصحبة الطويلة على مدى الوحى القرآني﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(الشورى: ١٣).

ولقد صحب جبريل محمداً (ﷺ) فى الإسراء كرفيق، ودليل مرشد مع النبي (ﷺ) وكأنيس مؤنس يؤنسه فى رحلته الأرضية والسماوية، ولم يكن نبي الإسلام يدرى منها من قبل.

فكان يستوضح جبريل فيما يرى ويسمع، وجبريل يشرح ويفسر، لأنه يعرف الملائكة وهو منهم ورئيسهم فخبرته بهم أوسع، وذلك عالمه فيما بين السماء والأرض.

وحديث الإسراء مشهور معلوم. فالقرآن الكريم يقص قصته ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ۞ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۞ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۞ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (النجم ١ – ١٨).

وفى حديث الحسن عن مسراه (ﷺ) - بَيْنما أنا نائم فى الحجر إذ جاءني جبريل فهمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً فعدت إلى مضجعى، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست، فأخذ بعضدي، فقمت معه، فخرج بي إلى باب المسجد فإذا دابة بيضاء، بين البغل والحمار، فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه، يضع يده فى منتهى طرفه، فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته.

قال ابن إسحاق السيرة النبوية لابن هشام.؛ وحدثت عن قتادة أنه قال:

حُدثت عن رسول (ﷺ) - قال: ((**لما دنوت منه– من البراق لأركبه شَمَسَ** (شمس: أي لم يمكن أحداً من ظهره)، **فوضع جبريل يده على معْرَفَته، ثم قال: ألا تستحي يا براق مما تصنع فوالله ما ركبك عند الله قبل محمد أكرم عليه منه قال: فاستحيا حتى ارفض عرقاً، ثم قر حتى ركبته**)).

فهنا ثبتت صحبة جبريل للنبي (ﷺ)، وأنه ما فارقه فيها. وهو الذى أيقظه من نومه وأحضر له الدابة.

وفى حديث المعراج قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أنه قال:

سمعت رسول الله (ﷺ)- يقول: ((**لما فرغت مما كان فى بيت المقدس، أتى بالمعراج ولم أر شيئاً أحسن منه قط، وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا حُضر فأصعدني صاحبي فيه، حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة عليه ملك من الملائكة يقال له: "إسماعيل" فلما دخل بي قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا محمد قال: أو قد بعث إليه ؟ قال: نعم فدعا لي بخير**)).

ثم استمر فى الحديث واصفاً ما رآه، وجبريل معه يسأله النبي عما يرى، وجبريل يجيبه ويشرح له. فى السماء الثانية والثالثة والرابعة إلى السابعة. ونبي الله يسأل: من هذا يا جبريل ؟ فيقول جبريل: هذا أخوك فلان.

وعن ابن مسعود عن النبي (ﷺ): ((**أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا حين يستأذن فى دخولها من هذا يا جبريل: فيقول: محمد فيقولون: أو قد بُعث فيقول: نعم، فيقولون: حياه الله من أخ وصاحب**)).

وكل هذا يفيد الصحبة من جبريل، تلك الصحبة الأكيدة طيلة الرحلة إسراءً ومعراجاً وأنه كان معه الدليل والمستأذن.

وفيه أيضاً أن جبريل وقف عند حد حالة المعراج وقال لرسول الله (ﷺ). "وما منا إلا له مقام معلوم " فوقف جبريل، وصعد رسول الله إلى ما صعد إليه ثم رجع لما لموضوع الإسراء والمعراج من أهمية فقد أفردت له بابا مستقلاً سوف يرد ذكره فيما بعد. وكذلك كان جبريل عليه السلام يأتيه أحياناً على صورة بشر، وقد أتاه فى صورة صحابي جليل تميز بجمال

الصورة هو "دحية الكلبي".

ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

((**بينما نحن جلوس عند النبي (ﷺ) إذ أقبل رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر. فجلس بين يدي النبي ووضع يديه على ركبتيه- أي كجلسة الصلاة- وقال: يا محمد ما الإسلام ؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت**)).

فأخبرني عن الإيمان قال: ((**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال فأخبرني عن الساعة.قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فما أشراطها؟ قال أن تلد الأمة ربها، وأن ترى الحفاة العراة رعاة الشاء يتطاولون فى البنيان**)).

فعجبنا له كيف يسأله ويصدقه. ثم انصرف فقال رسول الله (ﷺ): ((**أتدرون من هذا؟ هو جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم**)) رواه مسلم.

وهذا ضرب كبير من الصحبة التى صحبها جبريل لرسول الله (ﷺ) وكان أحياناً يأتيه مثل صلصلة الجرس، وأحياناً كدوى النحل يسمع حول وجه النبي، وأخرى يأتيه على صورته الملائكية والرسول (ﷺ) يعرف هذا كله، وينتظره ليستقبله، ويتشوق إليه. وجبريل يأتيه بالوحي، ينطق به، ويتلو عليه خبر السماء، والنبي يحفظ ويعي ويبلغ، والناس لسماع القرآن يتلهفون ويحفظون، ويعملون بما يبلغون.

وهذا كله لم يتفق على هذه الصورة لبشر- نبيّاً كان أم صالحاً ورسولاً- إلا لرسولنا ونبينا محمد (ﷺ).

وهو من أسرار النبوة الخالدة وخصائصها فى نبي الإسلام ومبلغ القرآن.

* * *

الباب الرابع

الإسراء والمعراج معجزة كبرى

. الحمد لله العلى الأعلى، ذي الملك والملكوت، والسلطان والجبروت، الذى تجلى لخلقه بصفاته وأسمائه، وتعالَى بجلاله من أن تدرك الإفهام كنه حقيقته وتنزه عن أن يشبه شيئاً أو يشبهه شيء، وتقدس عن المثيل والنظير ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وتعالى فى أحديته، وعز فى عظمته، فلا كم ولا كيف ولا أين، لا يحيط به العلم، ولا تدركه العين، ولا يحيط به مكان دون مكان، ونسبة العرش والفرش إليه سواء، فقد ناجاه يونس فى قاع الماء، كما ناجاه سيد الأنبياء فى أعلى سماء، وما كان أحدهما أقرب إليه من الآخر باعتبار المكان، وما أسرى بعبده لقرب مكان، سبحانه تنزه عن المكانية والجسمية، وهو معه حيث كان، وما السر فى المسرى إلا ليريه جميع مخلوقاته، ويطلعه على باهر قدرته فى ملكوته وأرضه وسمائه، وتشهد الملائكة برفيع درجته وعلو مكانته (ﷺ)، ويرتقى به مولاه إلى أعلى درجات العز، وأشهد أنه الإله الكبير المتعالي عن هذه العبارات، المتقدس عن أن تعلم ذاته بالتصريح والإشارات، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى ما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، واختصه مولاه دون جميع الأنبياء والمرسلين، بالإسراء والمعراج وجعله مرآة الذات ومهبط أنوار الخيرات، صلوات الله تعالى وسلامه على النبي الأمي، وعلى جميع إخوانه النبيين، وأصحابه والتابعين وعلينا معهم يارب العالمين.

"وبعد" فإن المصطفى (ﷺ) أعرف خلق الله بالله جل شأنه، وأن الله سبحانه فضَّله على جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، فحقيقة فضله (ﷺ) لا يدركها إنسان، ولا يحصيها عَدٌّ ولا يحيط بها الحصر، وليس فوقه فى الكمال إلا الله.

. فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم ومعجزاته فَاقتْ معجزات جميع الأنبياء والمرسلين، ومهما كانت فهي لا تخرج عن كونها من جملة مقدورات رب العالمين، وليست إلا تفصيلات لشرح معنى علو قدره المسلم به عند جميع المؤمنين، فقد أدركوا ببصائرهم من الأسرار والأنوار ما لم تدركه الأبصار، ونحن وإن لم نشاهد من ذلك ما شاهدوه، فقد شاركناهم فى الإيمان بما آمنوا به واعتقدوه، وليس لهم بذلك منة

عليه، لأنه منه وإليه، (ﷺ) كالبحر يمطره السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه، ومن معجزاته الكبرى وآياته العظمى التي أصبح القطع بتواترها حقا وصدقا، إسراؤه ومعراجه إلى أعلى عليين، ليشاهد آيات ربه الكبرى، ويطلع على العالم بأسره أرضه وسمائه، خصوصية ما نالها قبله نبي ولا رسول، حارت لها الأفهام وأدهشت فلاسفة جميع العالم، ولم يدرك سرها عالم بعجائب الوجود، لما حوت من الأسرار العجيبة، والحكم الغريبة، والسر المكنون، والغيب المصون، ولم يسع الناس اليوم إلا الإيمان بهذا الإسراء جسما وروحا، والاعتراف بفضل هذا النبي الكريم، بأن مسراه معجزة كبرى، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية وأكملها، وقد بينت الشريعة الغراء سر هذا المسرى، وأوضحت حقائقه، وآمن به المؤمنون إيمانا جازما، وذلك من ألف وأربعمائة وتسع عشر من السنين، حتى اخترعت الطيارات والصواريخ وطوت بعيد المسافات فى أقصر زمن، محملة بالناس والأثقال، عابرة البحار والمحيطات والجبال، ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾(الانشقاق: ٢٠، ٢١)؟ لأن ما كان ممتنعاً عندهم قديماً من باهر المعجزات ومؤيداً بالقرآن العزيز وصحائح الأخبار مصدقا به السلف، ومجمعاً على تصديقهم أهل اليقين والتحقيق من الخلف، صار معتاداً برأى العين ومشاهداً فى كل حين، اللهم إنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول(ﷺ) وصدقنا بإسرائه ومعراجه وبكل ما جاء به، فاكتبنا عندك من الشاهدين، وها هي ذي رسالتي عن الإسراء والمعراج ومع إيجازها فهي تصديقي، فاقبلها منى يارب واجعلها نافعة لجميع المؤمنين والحمد لله رب العالمين.

حديث الإسراء

الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم المعراج إلى السموات العلى، إلى ما لا يعلمه إلا الله، حديث ثابت لا خلاف فيه بين المسلمين، ولا شك ولا إنكار ولا تردد فى صحته، وقع جسماً وروحاً يقظة لا مناماً، نطق بذلك القرآن العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وجاء بتفصيله شرح عجائبه نبينا محمد (ﷺ) بكلامه النبوي، الذى هو وحى يوحَى.

فيجب الإيمان به بما انطوى عليه من درجات الرفعة إيماناً صحيحاً، كما يجب

الإيمان بكل ما جاء به سيد الأنام صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فمن شك فى مسراه (ﷺ) فقد ضل وظلم نفسه ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾(الأحزاب: ٧٢). وحاد عن الإسلام وكذَّب القرآن الكريم، وخبر الرسول الأمين، وخرج عن إجماع المحققين والمسلمين، فماذا عليهم لو آمنوا بذلك إيماناً جازماً، وصدقوا بما جاء به القرآن العزيز وصحاح الأخبار، تصديقاً تاماً، ليسلموا من التخبطات والجهالات، التى وقع فيها أهل الزيغ والفجور لقصور عقولهم عن إدراك ما لم يدركوا وعلم ما لم يعلموا ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾(يونس: ٣٩).. وقد يبين لك خطأ روايتهم إن شاء الله، بعد ما تقف على أدلة القرآن الكريم، والأدلة النبوية لتكون على حق ويقين من إسرائه (ﷺ) وتهتدي بذلك إلى الطريق المستقيم وإليك البيان من القرآن الكريم، وكلام سيد المرسلين (ﷺ).

قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (الإسراء: ١). وقال عز من قائل: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(الإسراء: ٦٠). ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ✿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ✿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ✿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ✿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ✿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ✿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ✿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ✿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ✿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ✿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ✿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ✿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ✿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ✿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ✿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ✿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ✿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾(النجم: ١- ١٨).

أدلة النبوة

الأدلة الحديثية من كلام خير البرية، كثيرة منتشرة خرجتها كتب الصحاح والمسانيد، ورواها كثير من الصحابة، رضي الله عنهم، لا يقل عددهم عن الأربعين، كعمر بن الخطاب، وأبى بكر، وعلى بن أبى طالب، وأبى بن كعب، وجابر بن عبد الله، وحذيفة بن اليمان، وسمرة بن جندب، وسهل بن سعد، وشداد ابن أوس، ومالك بن أوس، وأبى هريرة، وأم المؤمنين السيدة عائشة، وأم سلمة أم المؤمنين وأم هانئ وأسماء

بنت أبى بكر وغيرهم من كبار الصحابة وخيار التابعين، رضي الله عنهم أجمعين، وأجمع على ذلك المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون، ولقد جمع هذه الأحاديث جلال الدين السيوطى، فى الخصائص الكبرى، وإليك بعض هذه الأحاديث، فإن أردت المزيد، فعليك بالخصائص والشفا، والمواهب اللدنية وغيرها، ولنبدأ منها بحديث ثابت عن أنس من طريق مسلم، لأنه أعدلها متناً؟، وأصحها سنداً، قال: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البنانى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله (ﷺ) قال: ((أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته، حتى أتيت بيت المقدس، وربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاء جبريل بإناء من عسل، وإناء من لبن، فأخذت اللبن، فقال جبريل: أخذت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل من أنت: قال جبريل: قيل ومن معك ؟ قال: محمد قيل وقد بُعث إليه؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بآدم عليه السلام، فرحب بي، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل من أنت: قال جبريل قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه: ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة، عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام، فرحبا بى، ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أُعطى شطر الحسن، فرحب بى ودعا لي بخير ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فذكر مثله فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾(مريم: ٥٧). ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم، سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشى– تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلىَّ ما أوحى، ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى فقال: ما

فرض على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ؛ فإني قد بلوت بني إسرائيل قبلك، وخبرتهم ؛ قال: فرجعت إلى ربي فقلت يارب، خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك، واسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي وموسى حتى قال: يا محمد إنهم خمس صلوات، لكل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه)) الخصائص الكبرى للسيوطي.

٢- (أخرج الطبراني) وابن قانع (وابن مردويه) عن أبي الحمراء قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**لما أسرى بي إلى السماء السابعة، فإذا على ساق العرش الأيمن لا إله إلا الله محمد رسول الله**)) رواه الطبراني في معجمه الأوسط.

٣- أخرج (ابن أبي حاتم والبيهقي وصححه البزار والطبراني وابن مردويه) عن شداد بن أوس قال: ((قلنا يا رسول الله، كيف أسرى بك ؟ قال: صليت بأصحابي العتمة بمكة مُعْتِماً فأتاني جبريل بدابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب، فاستصعب علي فرأزها(اختبرها). بأذنها، ثم حملني عليها فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها، حيث أدرك طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخيل فأنزلني فقال: صل، فصليت ثم ركبنا فقال: أتدرى أين صليت ؟ فقلت: لا، قال: صليت بيثرب، وصليت بطيبة، فانطلقت تهوى بنا، ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل فنزلت، ثم قال صل فصليت، ثم ركبنا، فقال: أتدرى أين صليت ؟ قلت: لا، قال: صليت عند شجرة موسى، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور، قال: انزل فنزلت فقال: صل فصليت، ثم ركبنا، فقال: أتدرى أين صليت ؟ قلت: لا، قال: صليت ببيت لحم، حيث وُلد عيسى، ثم انطلق بي، حتى دخلنا المدينة، من بابها الثاني، فأتى قبلة المسجد، فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت في المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني قط فأتيت بإناءين، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، أرسل إليَّ بهما جميعاً، فعدلت

بينهما، ثم هداني الله فأخذت اللبن، فشربت، حتى قرعت به جبيني، وبين يدي شيخ متكئ على منبر له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة، إنه ليهدى؛ ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي، الذى فيه المدينة، فإذا جهنم تتكشف على مثل الزرابي، قلت يا رسول الله، كيف وجدتها ؟ قال: مثل الحمة السخنة؛ ثم انصرف بي فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيراً لهم، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي، قبل الصبح بمكة، فأتاني أبو بكر فقال: يا رسول الله، أين كنت الليلة ؟ فقد التمستك فى مظانك، فقال: علمت أنى أتيت بين المقدس الليلة ؟ فقال: يا رسول الله إنه مسيرة شهر، فصفه لي، قال: ففتح لي صراط كأني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه، قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله، فقال المشركون انظروا إلى ابن أبى كبشة، يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة، فقال: إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا ، قد أضلوا بعيراً لهم فجمعه فلان، وأن مسيرهم ينزلون بكذا وكذا، ويأتونكم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود، وغرارتان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينتظرون حتى كان قريباً من نصف النهار، أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول الله ﷺ)).

٤- (أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه) عن أبى أيوب الأنصاري أن رسول الله (ﷺ) ليلة أسرى به مر على إبراهيم عليه السلام فقال له إبراهيم: ((مُرْ أمتك فليكثروا من غراس الجنة فإن تربتها طيبة، وأرضها واسعة، فقال النبي (ﷺ): وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله)).

٥- (وأخرج ابن مردويه) من طريق زيد بن على عن آبائه عن على أن رسول الله (ﷺ) عُلِّمَ الأذان ليلة أسرى به وفرضت عليه الصلاة.

٦- وأخرج (أحمد) عن ابن عباس قال: فرض الله على نبيه الصلاة خمسين صلاة، فسأل ربه فجعلها خمس صلوات.

ظهر لك واضحاً من كلام رب العالمين وخبر الصادق المصدق، اللذيْن لا غموض فيهما ولا خفاء ولا جدال، ولا مكابرة — أن هذا الفعل العجيب الخارق للعادة، الثابت بالأحاديث المتواترة وبما نطقت به الآيات القرآنية من الاستعظام والعبودية والاستدلال بالسرعة الخارقة للعادة المؤيدة لأعظم معجزة، لم يسبق لها مثيل لغير نبينا محمد (ﷺ)،

قامت بها الأسرار الإلهية من تلطيف جسمه الشريف وترقيق حجب بشريته (ﷺ) حتى صار نورانياً ملكياً مطلوباً إلى الجناب العلوي، تكريماً وتشريفاً لهذا النبي الأمي العظيم والرسول الكريم (ﷺ) ليتحفه بأنواع التحف والزلفى، ويريه تبارك وتعالى ما أخفاه من آياته الكبرى وعجائب صنعه فى سمواته وأرضه، ما لم يره قبله أحد من جميع خلقه، فارتفع إلى أعلى مقام عظيم حيث صار هناك ذلك التعليم، فعلّمه مولاه ما لم يكن يعلم ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾(النساء: ١١٣). ولا يخفى على كل ذي فهم حكيم أن معنى قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾(النجم: ٦). لا تناسب إلا هذا النبي الكريم أي إنك صاحب متانة ورصانة، وهذا أليق بالبشر من الملك لأن الملك مجرد عن المواد التركيبية، فلا يقال لهم آراء وأفكار، وإن العقل لنور تدرك به الأشياء قال الفخر فى تفسير قوله تعالى: (فاستوى) ما نصه: والظاهر أن المراد محمد (ﷺ)؛ ومعناه استوى بمكان، وهو بالمكان العالي رتبة ومنزلة فى رفعة القدر، لا حقيقة فى الحصول فى المكان ولم يكن الإسراء إليه سبحانه، لأنه لا يحده مكان، ولا يخلو منه مكان، وهو معه أينما كان، لا فوق ولا تحت ولا قرب ولا بعد ولا دنو ولا ارتفاع، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنه منزه عن المكانية والجسمية، كل المخلوقات فى قبضته، ورهن إشارته، وقهر عظمته، أمره بين الكاف والنون. اقتضت قدرته سبحانه أن يجعل فى جسمه الشريف، أهلية سماوية أرضية، تفوق قوى الملائكة، الموكلين بالعرش، ليصل بها إلى أشرف العوالم والمقامات العُلَى، التى ما وصل إليها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وهذا أعلى درجات الفضل، فكان (ﷺ) قاب قوسين أو أدنى، إشارة إلى قرب سيد البرية عليه من المولى الجليل كمال التحية. قال ابن عباس: دنا محمد فتدلى من ربه، وقال القرطبي: دنا محمد من ربه فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: الدنو من الله لا حد له ينتهي إليه مطمع فهْم، أو مطرح وهْم، فتدلى بسكون قلبه، إلى موضع الإيحاء، وقرب المحب من الحبيب غاية القربة فنال غاية الهيبة ودنوه منه برفع مكانته وتدليه. جذبه إلى جناب القدس، وفى هذا الموقف الرفيع جمع الله له بين الكلام والرؤية تشريفاً له وتعظيماً، وقرب منه جميع المخلوقات والأشياء: علوها وسفلها، حتى صارت مرئية منه (ﷺ)، قال: فصرت أنظر، ورأيت آياته الكبرى، وحفظني حتى ما زاغ البصر وما طغي— أي ما جاوز ما

أمر به وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أُمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. قال (ﷺ): زويت لي الأرض حتى أراني الله مشارق الأرض ومغاربها فكانت جميع العوالم أرضية وسماوية قريبة منه، فرأى العالم بأسره، ورأى الملائكة على اختلاف صفوفهم ومقاماتهم وما وكلوا من سدنة الجنان. وخزنة النيران، ورأى المقربين والمنعمين، ومقامات المطيعين، ومواضع العاصين، وشاهد ما حير العقول، وسبح فى الملكوت، ونظر سدرة المنتهى وما غشاها من العجائب وأبصر الكرسى، والحجب والأستار، وتلقى (ﷺ) الأمر بالصلاة دون واسطة، وغيرها من الفرائض لم يكن لها ذلك، وقد حض عليها الشارع عليه السلام ما لم يحض على غيرها من الفرائض، وجعلها فَرْقاً بين الإيمان والكفر وقال فيها: موضع الصلاة من الدين موضع الرأس من الجسد، وقال فيها: وجُعِلَت قرة عيني فى الصلاة. وقال فيها: أرحنا بها يا بلال، وسمع كل ما أوحى إليه من الرب العظيم بجسمه وروحه فى قربه. ومسراه ليلاً بالارتقاء لتلك المنزلة العليا، للتمكن من التخصص بمقام المحبة، لأن المولى جل وعلا اتخذه حبيباً وخليلاً، وجمع له بين مقام الخلة والمكالمة، وأشرق الليل بنوره، ليزداد الذين آمنوا بالغيب ويفتن الذين كفروا زيادة على فتنهم، إذ الليل أخفى حالاً من النهار، ولو كان المسرى نهارا لفات المؤمنين الإيمان بالغيب، وقد أثنى الله على الذين يؤمنون بالغيب، فمن أنكر المسرى الجسمي يقظة وروحاً، فقد أنكر عقله، وتعصب على المعقول والمنقول، مما أثبته السلف وجرى عليه المحققون من الخلف، مما لا يحتاج إلى بيان أو توضيح وإنما هو العناد والمكابرة، فلو صفت النفوس وخلصت النيات، وطهرت الأفئدة، وسلمت العقيدة، من الريب والغين، لثبت عندهم ما ثبت فى القرآن الكريم قطعاً، وما اختلفوا فيه، وتأكدوا أن الله سبحانه وتعالى أسرى بشمس الوجود مع خير ملائكته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً وإلى حيث دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، وفارقه جبريل، وانقطعت عنه الأصوات، وسمع صريف الأقلام وخاطبه مولاه مع نفى التكييف والتحديد، وأوحى إليه ما أوحى، وخصه بما لم يقع لغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأتحفه برفع المنزلة والكرامة وزاد فى تشريفه وتعظيمه وتكريمه، فخصه بالإسراء.

فى ليلة سطع نورها وازدهى فضلها وعم خيرها وتكاثرت بركاتها، فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر رجب من السنة الثانية عشرة للمبعث، الموافق لسنة إحدى وخمسين من ميلاد السراج المنير، سيد الكائنات ورئيس الأنبياء، وفخر الأنام فى يوم الاثنين الذى جعله سبحانه مبدأ النور والسناء والرفعة والبهاء، مولداً ومبعثاً ومسرى وهجرة فى ليلة هذا اليوم، الذى اختص الله به حبيبه كان هذا المسرى ليرى بعيني رأسه أسرار الملكوت، ويطوف بجسمه الشريف على عوالم الله كلها، ويحيط بها وبما شاء الله من الأسرار علماً، وينتقل من عالم إلى ما لا يعلم علمه إلا الله تعالى. هذا التاريخ للإسراء ضعيف.

البراق: ففي هذه الليلة المباركة، وبعد أن استقر الأنام فى المنام، ونامت منه العين ولم ينم القلب وعمه النور الإلهي، أكرمه المولى الكريم بفضل عظيم، واختصه بالمنزلة السامية وحباه بدرجة عالية، ما فوقها درجة، فأرسل له الروح الأمين ومعه ميكائيل عليهما السلام بدابة فوق الحمار ودون البغل، فحملاه من منامه برفق إلى المسجد الحرام، حيث زمزم والمقام، ونفذا أمر الملك العلام، ثم أركباه براقا ميمونا مسرجا ملجما، وسار به مشاهدا عالم الملك، وما فيه من باهر آيات الله إلى المسجد الأقصى إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، ففتحت السموات سماء سماء وفي كل سماء أمرها، وعرفه جبريل بكل من فيها وتلقاه مقربوها وعرفهم واحداً واحداً، وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين، وصافحهم، ورأى الملائكة صفوفا صفوفا ما بين ذاكر وعابد وراكع وساجد ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾(الأنبياء: ٢٠)، ﴿ **لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون** ﴾(التحريم: ٦).

ثم جاوزها إلى المقام الأسمى، وإلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، بما كان ويكون إلى يوم الوقت المعلوم، ورأى الجنة وما فيها من سندس وحرير ونعيم مقيم، أعده الله لعباده الصالحين، وشاهد النار وما فيها من أهوال وعذاب أليم، ولهب وسعير، لمن كذب بما جاء به الرسول الأمين (ﷺ)، وأعرض وتولى وأنكر ما ثبت بالبراهين والحجج الدامغة، كالإسراء والمعراج جسماً وروحاً.

ثم ارتقى (ﷺ) إلى سدرة المنتهي، عندها جنة المأوى، أو كما قرأ أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه وأبو الدرداء وجماعة من الصحابة عندها الجنه بالهاء لا التاء على أن جن فعل ماض[٤] والهاء ضمير المفعول ليعود للنبي (ﷺ)؛ والمأوى فاعل ؛ أى عندها ستره وإيواء الله تعالى، وجميل صنعه به الذى آواه فيه مولاه من عدم التزلزل والرجفة، وثبته وحباه وتولاه فما زاغ البصر، بل ثُبّت ثباتاً كليا فى نقطة اعتدال كمال الكمال، وكان هذا الإحسان على سيد الأكوان الذى ما ناله غيره من ملك ولا إنسان، خارجا عن دائرة الأكوان المحيط بها الزمان والمكان، وإلى هنا وقف جبريل وتأخر لأنه لا يناسب ما هو أعلى من تلك المقامات " وما منا إلا له مقام معلوم " ثم قال: تقدم أنت يا سيد الأنام، وحبيب الرحمن فإلى هنا مقامي، لو تقدمت أنملة لاحترقت. فتقدم سيد الكائنات، وغاب فى ملكوت العزة، واستغرق فى النور، وغشيته الهيبة الإلهية فناداه ربه وقربه وأدناه وناجاه بلا كيفية. قال جعفر الصادق عليه الرضا: لما قرب الحبيب غاية القرب، نالته غاية الهيبة، فلاطفه الحق سبحانه بغاية اللطف، لأنه لا تُتحمل غاية الهيبة إلا بغاية اللطف، وذلك قوله:﴿ **فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى** ﴾ كيف يكون فعلا ماضيا وقد دخلت (ال) على الكلمة وإن جاءت كذلك فى بعض اللغات. أى كان ما كان، وجرى ما جرى، قال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب لحبيبه، وألطف به إلطاف الحبيب بحبيبه وأسر إليه ما يسر الحبيب إلى حبيبه، فأخفيا ولم يطلعا على سرهما أحداً قال ابن الفارض:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا   سر أدق من النسيم إذا سرى

وكان مما أوحى فرض الصلاة، التى فيها المراتب السنية، وفيها يقول الحق على لسان نبيه (ﷺ): ((**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**)) وفى رواية ((**ولعبدي ما سأل**)). رواه مسلم. ، وقال (ﷺ): إذا دخل العبد فى الصلاة أقبل الله عليه، فإذا التفت أعرض عنه، وما ذلك إلا لأنها دون جميع العبادات، جمعت بين المناجاة الروحية، والرياضة الجسمية، وقيام الأعضاء، بتسبيح الملك الديان ﴿ **وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾(الإسراء: ٤٤). فصارت أعظم العبادات، لأن الله سبحانه فرضها بنفسه من غير

(٤)

واسطة وقد اعتنى الإمام مالك كل الاعتناء بشأنها أما الشافعي فقد حكم بقتل تاركها، أما الإمام أحمد فيرى كفره، فلو لازمها الإخلاص وأداها العبد على أتم ما يكون، لطهرت القلوب واستنارت الأفئدة وصفا يقين المرء، وسبح فى ملكوت الله، وعرج إلى ساحة كرمه وإنعامه ففاز من ربه بالغفران والأجر العظيم ونال بها جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، نطقت بذلك آيات الكتاب الكريم وبينته صحاح الأخبار النبوية، وهى دون جميع العبادات تتكرر فى اليوم والليلة خمس مرات عملاً، بعد أن كانت خمسين، شفقة بالأمة المحمدية ورحمة، وأنها عماد الدين والركن القويم وموضع المناجاة، وقد أجمع السلف والخلف على فرضيتها، فى أَجَلّ المواضع ليلة الإسراء، وجرى العمل بها إلى يوم الدين، فلما آتم الله عليه نعمته، وأناله ما لم ينله سواه، عاد إلى المقام المعلوم، حيث جبريل فى الانتظار، وهبطا معاً من السموات سماء سماء إلى المسجد الأقصى، وهبط معه الأنبياء تكريماً له وتعظيماً، واحتفاء بسيد الأنبياء، ضيفهم الكريم وقد حانت صلاة الغداة فأذّن جبريل، واصطف الأنبياء صفوفا ينتظرون الإمام، فقدم جبريل سيد الرسل إماماً.

وقال: تقدم فأنت للكل إماما، إظهارا لشرفه على جميع إخوانه من الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فلما أتم الصلاة، خرج من بيت المقدس مودَّعاً، وأثنى على مولاه، بعد ما سمع ثناء جميع الأنبياء "سبحانك اللهم لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ".

ثناء الأنبياء

آثنى **سيدنا إبراهيم** عليه الصلاة والسلام، فقال: الحمد لله الذى اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتا يؤتم بي وأنقذني من النار، وجعلها عليَّ برداً وسلاماً.

وأثنى **سيدنا موسى** عليه السلام، على ربه فقال: الحمد لله الذى كلمني تكليماً، واصطفاني وأنزل عليَّ التوراة، وجعل هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يديَّ، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم إن **داود** عليه السلام، أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذى جعل لي ملكاً

عظيماً وعلمني الزبور، وألان لي الحديد وسخر لي الجبال، يسبحن معي والطير، وآتاني الحكمة وفصل الخطاب.

وأثنى **سيدنا سليمان** عليه السلام على ربه فقال: الحمد لله الذى سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين، يعملون ما شئت، من محاريب وتماثيل، وعلمني منطق الطير، وآتاني ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل ملكي ملكاً طيباً، ليس فيه حساب.

ثم أثنى على ربه **سيدنا عيسى**، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، فقال: الحمد لله الذى جعلني كلمته، وجعلني مثل آدم، خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة، والتوراة والإنجيل، وجعلني أخلق الطير، أى أصور الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه، فيكون طيراً بإذن الله، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني، وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل.

وإن **سيدنا محمداً** (ﷺ)، قال: كلهم أثنى على ربه، وأنا أثني على ربي: الحمد لله، الذى أرسلني رحمة للعالمين كافة، للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليَّ الفرقان، فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً. فقال سيدنا إبراهيم عليه السلام: بهذا فضلكم محمد (ﷺ) ثم ركب البراق مُيَمِّماً صوب مكة والمقام، فلما أصبح حدث بمسراه، وأخبر بما عاين وشاهد، فأخذتهم الرجفة، وصعقوا بما أخبر، عناداً وتعجباً من هذا الأمر العظيم، وقال المنكرون: إن هذا لسحر مبين، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون، فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(الإسراء: ٦٠). ثم تجمعوا وقالوا: كيف يتم هذا بليل ؟ وهو لا يتم إلا فى أشهر ذهاباً وإياباً، فضلاً عن العروج، ومشاهدة الملكوت والسموات، والجنة والنار والمناجاة، وازداد عجبهم، وتحيروا فى أمر هذا الرسول الكريم، فمن كان قد أسلم وهو على شفا جرف، ارتد استبعاداً للخبر، وضل ضلالاً مبيناً. ووقع فى بلية عظيمة لردتهم وتكذيبهم وإنكارهم لخبر الصادق (ﷺ)، بما هو خارق للعادة، وما كذَّبوا إلا بما علموا أن إسراءه بالجسد والروح حال يقظته، وقد

حصل العلم القطعي، أن ما رأى عليه الصلاة والسلام وشاهد إلا يقظة جسماً وروحاً، لا مناماً، وتواترت الأخبار أن هذا الإسراء على البراق مما يوجب أنه كان بالجسد، لأن الدواب لا تحمل الأرواح، وإنما تحمل الأجسام.

وأما أولو العزم واليقين الصحيح، فقد ثبتوا على إيمانهم، وآمن قوم هداهم الله للإيمان، بعد ما تبين لهم الهدى من الضلال، وبعد سؤالهم النبي (ﷺ)، عن وصف بيت المقدس، وعن جزئيات فيه، كانوا يعلمونها، وهم يعلمون أن النبي (ﷺ) لم يكن قط دخل بيت المقدس، حتى يعلم الجزئيات التى فيه، فلما أن أعلمهم بها فى الحال، ووصف بيت المقدس وصفا تاما، وعَدَّ أبوابه بابا بابا، وجعل يقول: هذا باب كذا، وفى موضع كذا، وأبو بكر رضي الله عنه يقول: صدقت صدقت. فقال رسول الله (ﷺ) يومئذ: ((**يا أبا بكر إن الله عز وجل، قد سماك الصديق**))، فتحققوا أنه أسرى به قطعا، وكان ذلك، أكبر آية على تصديقه (ﷺ) فيما ادعاه، وسببا لتقوية إيمان المؤمنين، ولمن ختم الله عز وجل له بالسعادة من المشركين، فبان له الحق، بتلك الآية، ففزع عن الشرك وأسلم. أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال: قال(ﷺ): ((**لما كذبتني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس، قمت فى الحجْر فجلي الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنظر إليه**)). رواه البخاري. (وقال الإمام أحمد): حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعيد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس قال: قال (ﷺ): ((**لما عرج بي إلى ربى عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم**)).

وهاك تصديق بطريق إيلياء، أخبر به أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظي أن رسول الله (ﷺ) لما أرسل دحية الكلبي إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام دعا قومه وعرض عليهم كتاب النبي (ﷺ)، وأمرهم باتباعه، وأنه نبي، وقد بشر به الإنجيل، فقامت الأساقفة والشمامسة والبطارقة، وقالوا: لا تعجل حتى تسأل عنه وتكاتبه وتنظر فى أمره، قال فمن نسأل عنه؟ قالوا: من بالشام، فابتغوا قوماً ليسألوهم فجمعوا له أبا سفيان وأصحابه فسألهم فلم يألُ أبو سفيان أن يُصَغّر أمره ما استطاع، وقيصر يفند

قوله ويرده ويقول: والله ما تزيدونني عليه إلا بصيرة، والذي نفسي بيده ليوشكن أن يغلب على ما تحت قدميَّ، يا معشر الروم هَلُمُّوا إلى أن نجيب هذا الرجل إلى ما دعا إليه، ونسأله الشام، ألا يوطئ علينا أبداً، قالوا لا نطاوعك فى هذا أبداً قال أبو سفيان: والله ما يمنعني من أن أقول عليه قولا أسقطه من عينيه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على ولا يصدقني، حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قلت: أيها الملك ألا أخبرك عنه خبراً تعرف أنه قد كذب، قال: وما هو ؟ قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم، فى ليلة، فجاء مسجدكم هذا، مسجد (إيلياء) ورجع إلينا فى تلك الليلة قبل الصباح، قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر قال البطريق: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر قيصر وقال: ما علمك بهذا ؟ قال: إني لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة، غلقت الأبواب كلها، غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه عمالي، ومن يحضرني كلهم، فعالجته فلم نستطع أن نحركه كأنما به جبلاً، فدعوت النجاجرة فنظروا إليه فقالوا: هذا باب قد سقط عليه النجاف. ذروة الباب أي أعلاه، أو البنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح، فننظر من أين أُتِيَ عليه؟ فرجعت وتركته مفتوحاً، فلما أصبحت غدوت فإذا الحجر الذى من زاوية الباب مثقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة، فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا نبي، وقد صلي الليلة فى مسجدنا، فقال قيصر: يا معشر الروم ؛ أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبيّاً بشركم به عيسى ؟ وهذا هو النبي الذى بشر به عيسى، فأجيبوه إلى ما دعا إليه، فلما رأى نفورهم— ترك الأمر لهم، وقد طالبوه بآية ما يقول، فأخبرهم عن عيرهم وأنها فى مكان كذا، وذكر لهم عير فلان وفلان، وأنها بالروحاء، وتحضر فى وقت كذا، ثم أخبرهم أن عيراً ندَّ ند: نفر وذهب على وجهه. فانكسر، وأن ناقة أخرى ضلت وهم فى طلبها، وأنه شرب من ماء قدحهم وسلم عليهم، فلما حضروا وسألوهم عن ذلك كله، صدقوا الصادق المصدق فى خبره، فآمن من آمن، وشذ الخاطئون الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، فلم ينالوا إلا الخزي والعار، ومحال أن يصلوا إلى ما يوافق رأيهم العاثر، أنهم ماديون وهذه قوانين إلهية ونواميس روحية، لا يهتدي إليها عالم الطبيعة، لخروجها عن معقول العقول السقيمة، وهذه النواميس الروحية، تسلطت على الجسم وساد

سلطانها عليه. وصار الحكم لها لا له، فتمكنه من طي المسافات البعيدة، ورؤية المغيبات، واختراق الحجب والجدران، من غير ضرر يلحق الجسم، ولا أذى يشمله، وليس بخاف ما نشاهده من كرامات الأولياء صباح مساء، ولا إنكار لما هو حاصل لخواص البشر، الذين غلبت عليهم روحانيتهم، فتحكموا فى نواميس المادة تحكماً صدَّقَهُ النظر، وما كذبه العقل الحكيم، وها هو ذا الُمنَوَّم يجيب عما بعد عنه ونأى، ويخبر بما يتحقق بعد، وقد يحضر أشياء استعصى حضورها، وقد يخوض النار ولا تؤثر فيه، لتسلط الروح على مادة الجسم تسلطاً تاماً، وما حديث عرش بلقيس عنا بغريب، وليس بالقول الخيالي أو ما يحتمل خبره التصديق والتكذيب، بل قطعي جاء به القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾**. (النمل: ٣٩، ٤٠).

وهذا الخارق العظيم لم يتجاوز ثوان، قام به آصف كاتب سيدنا سليمان عليه السلام أو وزيره، إظهاراً لما وهب الله لسيدنا سليمان من الملك، وما سخر له من الجنود، وليتخذ ذلك حجة على ثبوت نبوته عند بلقيس وقومها، وما المسافة بين مأرب باليمن وبيت المقدس، إلا أضعاف ما بين البيت الحرام وبيت المقدس، وليس عرش بلقيس بالأمر الهين، فإنه من ذهب، وقوائمه لؤلؤ وجواهر، ومُستَّر بالديباج والحرير، وقد حجَّبته بالأغلاق والأقفال والحفظة، وها هى ذي الطيارات الآن تقطع أكثر من تلك المسافات فى أقصر زمن، ولا غرابة فى ذلك ولا إنكار، بل ألفه الناس وصار ما كان محالاً من مئات السنين، معتاداً مقبولاً، لأنهم يسمعون كل يوم ألوفاً من الحوادث، ويشاهدون ويقرءون الأخبار الدالة على السرعة المتناهية وخاصة الصواريخ التى أوصلت الإنسان إلى سطح القمر وها هى الأقمار تدور فى الفضاء وتعاد ثانية إلى سطح الأرض ولا عجب ولا استعباد، فكيف بإمام الروحانيين وسيد الخلق أجمعين ! ومن هو أعلاهم منزلة، وأسماهم مقاماً، وكيف نستبعد ذلك على قدرة الله العلي العظيم ! ذي السلطان والجبروت، الذى أعطى سيد الأنبياء ما لم يعطه نبي قبله ولا رسول، ولم ينله جبريل ولا الملائكة المقربون، وكيف لا يُعْلِنُ الله سبحانه فضل النبي الكريم (ﷺ)، وحبيبه المختار

لجميع خلقه ! وكيف لا يخرق للقدرة البشرية النواميس الطبيعية ! لتحظى هذه الحضرة النبوية فى حضرة القرب، بالمكالمة والمشاهدة، من غير إدراك ولا إحاطة ولا تكييف بحد ولا انتهاء، (ﷺ) أفضل ما صلى على أحد من عباده الذين اصطفى، وماذا عسى أن يقال: سوى أن المحب القادر الفعال لما يشاء الذى لا يعجزه شيء والذي خلق حبيبه من نوره، وفضله على جميع الأنبياء والمرسلين، واختاره ليكون نبيّاً ورسولاً للناس كافة، قد دعاه لمشاهدة عجائبه، وأرسل له خواص ملائكته تنفيذاً لأمره، فأي مسافة تطول على ذلك الحبيب الرباني ! وأي جسم يمتنع عن أن يخترق ذلك الجسد النوراني ! ليشاهد من آيات ربه الكبرى ويخترق السبع الطباق ويرى ويسمع ما أعده الله لعباده المتقين، أولي اليقين الصحيح والعزيمة الصادقة، أصحاب الهدى، الذى صدقوا وفازوا بنعيم مقيم، وكانوا من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وليقيم الحجة على من كذب وتولى عناداً وحسداً فكانوا لجهنم حطباً، ولا ناصر لهم ولا دليل يؤيدهم، غير ما نسب إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها فى قول من قال إنها قالت: ما فُقِدَ جسده؛ أو ما فقدت على خلاف فى روايته، فإنه بين البطلان، ظاهر عليه الزور والاختلاف، ولا أصل له على الإطلاق، وإنما رواه القصاص ولإخفاء الحقيقة المحمدية ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(الصف: ٨): على أن من له أدنى علم بالتاريخ يعتقد براءة السيدة عائشة مما نُسبَ إليها، لأنها ولدت فى السنة الرابعة للمبعث، وكان سنها لا يتجاوز السبع سنين وقت الإسراء، ولم يكن النبي (ﷺ) قد بنى بها رضي الله عنها، على أن الحفاظ ردوا هذا الحديث وقالوا: إنه ليس بالثابت عنها، لما فى متنه من العلة القادحة وفى سنده من انقطاع ورواية مجهول، قال ابن دحية فى التنوير إنه حديث موضوع، وقال غيره: روايته غير مقبولة، وعلى فرض صحة رواية ما فُقِدَ بالبناء للمجهول فهي لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن فى سن يضبط عنها، فقد كانت سن سبع سنين، ورواية ما فقدت كان لم يدخل بها إلا فى المدينة، هذا مما يوهنه ويؤيده رد الحفاظ له، بل الذى يدل على وضعه ويثبت على أن الإسراء كان بالجسد الشريف، إنكارها رؤيته لربه رؤية عين باصرة ولو كان الإسراء عندها مناماً، لم تنكر ذلك، فهذا بدا لفهمي العليل وأدى إليه فكري

الكليل، فلا تكن من الغافلين، وقد (روي البيهقى) عنها ما يثبت إنكار ما نسب إليها، قال (البيهقى): أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضى، حدثني إبراهيم بن الهيثم البكري، حدثني محمد بن كثير الصنعانى، حدثنا محمد بن راشد، عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما أسرى برسول الله (ﷺ)، إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا قد آمنوا به وصدّقوه وسَعَوْا بذلك إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ؟ فقال: أوَ قال ذلك ؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه من خبر السماء فى غدوة أو رَوْحَةٍ، فلذلك سمى أبو بكر الصديق (وأخرج الطبراني فى الأوسط، وابن مردويه) من طريق أبى معشر عن ابن أبى وهب مولى أبى هريرة قال: لما رجع رسول الله (ﷺ) ليلة أسرى به وكان بذي طوى. (طوى: واد قرب مكة: ويعرف الآن– بالزاهر فى طريق التنعيم). قال: ((**يا جبريل إن قومي لا يصدقوني، قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق**)) (وأخرج ابن مردويه) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله (ﷺ): ((**لما أسرى بي إلى السماء، أذّنَ جبريل فظنت الملائكة أنه يصلى بهم فقدمني فصليت بالملائكة**)): (وروى البخاري) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (هى رؤيا عين أريها رسول الله (ﷺ) وكان ببدنه وروحه) وما شَكَّ فى ذلك أحد من جمهور السلف والخلف، وليس ببعيد على قدرة الله سبحانه، وعظيم حكمته أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة، التى هى أسرع من حركة ضياء الشمس، فى بدن حضرة النبي (ﷺ)، فيسير ويعرج ويشاهد المشاهد السماوية والتجليات الإلهية ويتحلى بالفيوضات الربانية، ويرى برؤيا العين لا برؤيا المنام ما شاهده فى مسراه، وينظر ما بعد السموات السبع، من أمور لا يعلم كنهها إلا الله تعالى، وليست الرؤيا (بالألف) خاصة برؤية المنام، كما فهم بعض من فهم، وأن الرؤيا فى الآية الكريمة غير يقظية وإن هذا لخطأ فإن الرؤيا تشمل المنامية واليقظية، قال (السهيلي) الرؤيا تكون بمعني الرؤية أيضاً ومنه قول المتنبي: ورؤياك أحلى فى الجفون من الغمض، وقال الإمام ابن دحية: قال أهل اللغة رأيت رؤية ورؤيا، كقربة وقربَى.

على أن الرؤيا المنامية لا تكون فتنة للناس، ولا يفتتن بها أحد، ولا تكون معجزة، ولا يتعجب الناس منها، وهذه من أكبر معجزاته (ﷺ)، وأعظم الآيات التى ثبتت ثبوتاً قطعيّاً بالبراهين البينات، والحجج المحكمات، والأنباء الصادقات، إنها بالجسد والروح، وإلا ما استدعت التعجب والاندهاش، لأن الإنسان العادي فضلاً عن النبي (ﷺ)، يرى نفسه فى نومه، فى السماء أو يطير فى الهواء ويذهب من المشرق إلى المغرب، ويسبح غائصا فى مسابح الأسماك، كل ذلك فيما لا يتجاوز الثواني، ثم يصبح ويحدث بما رأى، فلا يستبعد أحد عليه ما رأى، ولا تستدعى رؤيته التصديق والتكذيب، فكيف يستبعدون ذلك على خبر الصادق الأمين، ويستغربون استغراباً كبيراً (وما التعجب والاستغراب إلا لازم من لوازم المعجزة) ولو كان مناماً ما كانت مستغربة ولِمَا وقعوا فى اندهاش شديد، ترتب عليه التكذيب والتصديق والتصغير، ووضع الأيدي على الرءوس، أفلا يدل كل هذا على أنها بصرية، يقظة بجسمه وروحه حقا، وإلا لما افتتنوا بما أخبرهم به الصادق مسراه (ﷺ)، الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فمن سبقت لهم الحسنى، صدقوا وآمنوا وما كذبوا، ومن أضلهم الله كابروا وعاندوا وكذبوا. قال المطعم بن عدى، تزعم أنك أتيت بيت المقدس فى ليلة، واللات والعزى لا أصدقك، فقال أبو بكر: يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك، أنا أشهد أنه صادق: قال تعالى **﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾** (النساء: ١١٥).

اللهم إنا آمنا بما آمن به المؤمنون وصدقنا بما أخبر به الصادق المصدق (ﷺ).

وليس لنا أن نخوض فيما لا علم لنا به، قال تعالى: **﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾** (الإسراء: ٣٦). وما علينا إلا أن نقف عند حد التفويض والتسليم بفضل هذا النبي الكريم والإيمان بما قام به من جهاد عنيف لإعلاء كلمة الله وتثبيت قواعد هذا الدين الحنيف.

* * *

الباب الخامس

نظرة فى أزواج النبي (ﷺ)

وتعدد زوجاته

[للنبي تشريعات خاصة به. فى صلاته، وصيامه، وزواجه]:

قد أثار موضوع تعدد زوجات النبي (ﷺ) أهمية بالغة لدى العلماء والمفكرين من المسلمين وغير المسلمين، وذلك لما يُظَنُّ فيه من شذوذ يبعث على العجب، وغرابة تدعو إلى التساؤل: متى كان نبي الإسلام يتميز عن غيره من المسلمين ؟ ويبيح لنفسه ما يحرمه على غيره؟

ولماذا يكون عدد الزوجات محدودا بأربع لجميع المسلمين وتقيد الزيادة عن واحدة بشروط خاصة وفى أحوال خاصة، بينما الرسول وحده هو الذى يتمتع بحرية مطلقة فى هذا المجال؟

وقد انتهز المفكرون من الأجانب هذه الفرصة، وحسبوا (ظنوا وأيقنوا). أنها نقطة ضعف تشين محمداً صلوات الله وسلامه عليه، فأخذوا يوجهون سهامهم المسمومة، ويطعنون خُلُق الرسول، ويشوهون من تاريخه الحافل بالفضائل، ويقولون: إنه رجل تسيطر عليه الشهوة الجنسية وتملك زمامه وأنه حينما وجد أن تقييد عدد الزوجات بأربع لا يطفئ غلته ولا يرضي إربته. أطلق لنفسه العنان كما يشاء، فجمع إلى عصمته هذا العدد الضخم من النساء.

وكان من واجب المسلمين الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الرسول (ﷺ) أن يجلوا غواشى الشك فى مثل هذه النقطة الغامضة حتى لا تضل فيها الأفهام وتزل بها الأقدام، وقد نشطوا لذلك– والحمد لله– على توالي العصور والأزمنة، وبيَّنوا الدوافع القوية التى كانت تحيط بزواج الرسول (ﷺ) من كل واحدة من زوجاته الكثيرات، والتي كانت تجعل هذا الزواج هدفا إلى المصلحة العامة دون سواها. وأقاموا حجتهم على دعائم قوية من المنطق السليم. فتتبعوا تاريخ سيدنا محمد وما عرف عنه من العفة والطهارة فى كل فترة من فترات حياته بشهادة أعدائه قبل أصدقائه، وكيف مرت عليه فترة الشباب الحرجة دون أن يتزوج ولم يعرف عنه خلال هذه الفترة ما عرف الكثير من

آترابه من الطيش والانحراف العابث، بل كان فى كل أحواله وظروفه مضرب المثل فى الخلق الكريم والمسلم القويم.

وبعد أن تزوج من السيدة خديجة. وكانت قد بلغت الأربعين وهو سن يعف عنه الكثير من الشباب، كان محمد صلوات الله وسلامه عليه راضيا بها ومطمئنا لها، وسعيداً بالمعيشة معها، لأنه لا يطلب من الزوجة إلا الإخلاص والوفاء. وقد وجد فى زوجته خديجة الغاية المرجوة من الإخلاص والوفاء.

. وهكذا ظل الرسول (ﷺ) مع زوجته خديجة حتى بلغ من العمر خمسين عاما ، ثم توفيت السيدة خديجة، فتزوج الرسول سائر نسائه في العقد السادس من حياته. وفي مثل هذا العمر تضعف الغريزة الجنسية حتى لدى الأشخاص العاديين الذين لا يرهقهم التفكير: فما ظنكم بمن حمل الأمانة الكبرى ، ووسدت له الإمامة العظمى ، ومن استغرقت رعيته وأمته كل دقيقة من تفكيره وكل لحظه في حياته؟ وماذا يمكن أن يبقى له من الطاقة حتى يصرفها في ملذاته ؟ أو يقسمها على سائر زوجاته ؟

ولكن هذا المنطق السليم لم يقنع هؤلاء المكابرين في الغي والضلالة، فظلوا على موقفهم من نبي الإسلام ، يطلقون حوله التهم الكاذبة والأراجيف الباطلة.

فماذا يمكن أن يقال لمثل هؤلاء مادام الحقد على نبي الإسلام قد أكل قلوبهم؟ إلا أننا سنقول لهم وبحق ما نقول:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويشتكى الفم طعم الماء من سقم

إننا نقول لهم ذلك ما داموا لا يؤمنون بالقضايا المنطقية. فإذا تجاوزنا ذلك كله فليس يعيينا أن نقول :

إن هذه خصوصية الرسول (ﷺ)، وقد أباح الله له ذلك تأليفاً لقلوب القبائل التى يتصل بها برابطة النسب، وحتى لا ينحصر شرف الاتصال بالرسول فى دائرة محدودة، وحتى يتسع المجال لنشر الإسلام فى أكبر عدد من قبائل العرب بمن يرتبطون بمصاهرة الرسول.

وحينما نزلت الآية الكريمة التى تقول: **﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾** (النساء: ٣)، والواو في الآية للتخيير وليست للتعدد كما ذهب أهل الظاهر بأنها للتعدد.

حينما نزلت هذه الآية، كان لابد من تطبيقها على جميع المسلمين عدا رسول الله (ﷺ)... وكان من يدخل الإسلام يطلق ما يزيد على أربع من زوجاته إن كان تحت يده عدد أكبر. حتى إن غيلان الثقفي أسلم وتحته عشر نساء فتخلص مما زاد على أربع منهن.

وسواء أكانت هذه الآية قد نزلت قبل أن يزيد عدد نساء الرسول عن أربع، أو نزلت بعد أن زاد عددهن، فإن المعروف أن الرسول قد ظل غير مقيد بعدد خاص حتى نزل قول الله تعالى له: **﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾**(الأحزاب: ٥٢). فلم يتزوج بعد ذلك، وحينما لحق بربه كان فى عصمته تسع نساء. فماذا عسى أن يكون موقف الرسول من هؤلاء الزوجات؟

إن أزواج الرسول هن أمهات المؤمنين، وقد أنزلهم الله هذه المنزلة السامية، فقال سبحانه: **﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾** (الأحزاب: ٦).. **﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً﴾**(الأحزاب: ٥٣).

وإذا كان الله قد حرم نساء الرسول أن يتزوجن من بعده فكيف يطلق الرسول النساء الزائدات عن الأربع، ويقضي عليهن بالترمل أبداً بينما يباح الزواج لأية امرأة إذا طلقها زوجها ؟.

إن من حق زوجة الرسول وهى أم المؤمنين أن تظل طول حياة الرسول لابسة هذا الثوب الكريم الذى جملها الله به، تعويضا لها عما يمكن أن يصادفها من حرمان لا تتعرض له غيرها من سائر زوجات المسلمين بعد وفاة أزواجهن، وقد قضى الله بذلك حيث قال لرسوله **﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾** (الأحزاب: ٥٢).

فهذه الآية تقضى بألا يزيد الرسول فى عدد زوجاته، وألا يبدل زوجة بأخرى مهما كانت الظروف والأحوال.

ولكن قد يتساءل بعض الناس: لماذا أباح الله لنبيه أن يتزوج من النساء أكثر مما أباح لغيره؟

فقد أحل الله للناس عند الضرورة من الأزواج مثنى وثلاث ورباع.

وأحل لرسول الله أكثر من ذلك!

نعم، لقد خص الله نبيه بحقوق، وفرض عليه واجبات انفرد بها عن الناس، وجعلها من خصائص نبيه.

قد فرض عليه مثلاً قيام الليل فى الصلاة، وذِكْرَ الله. أو قيام نصفه، أو ما يزيد عن نصفه. ولم يجعل ذلك فرضاً على الناس كافة!

فقال الله سبحانه يخاطب نبيه: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾ (المزمل: ١ – ٤).

فكان النبي (ﷺ) يصلى صلاة الليل حتى تتورم ركبتاه وقدماه من الركوع والسجود وهَمَّ جماعة من المسلمين أن يصلوا بصلاته فى المسجد، على قراءة النبي فى بيته الملاصق للمسجد؛ فصنعوا ذلك ليلة أو ليلتين.

فلما أحس بهم رسول الله (ﷺ) انقطع عن صلاة الليل. فلما أصبح سألوه عن ذلك. فقال لهم: ((خشيت أن تكتب عليكم صلاة الليل ولو كتبت ما استطعتم!)).

فعرفوا أن هذه الصلاة مفروضة عليه وحده دون المسلمين.

وكذلك كان الرسول (ﷺ) يصوم كما يصوم الناس، وأحياناً كان يواصل الصيام فيقضي اليومين والثلاثة صائماً ليلاً ونهاراً، وصياماً متواصلاً، لا يفطر فيها. وأراد بعض أصحابه أن يصنعوا مثله، فنهاهم النبي (ﷺ) عن ذلك. فقال: ((**ولا تواصلوا الصيام مثلي؛ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**)). رواه مسلم.

وكما خصه الله بأنواع من العبادة لم يفرضها على غيره، كذلك خصه بحقوق لم يجعل مثلها للناس. والله لا يُسأل عما يفعل.

فجعل الله سبحانه زوجات النبي (ﷺ) أمهات للمؤمنين.

وحرم على المسلمين أن يتزوجوا بهن من بعده، وجعل ذلك مما يؤذيه. فقال: ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً**﴾ (الأحزاب: ٥٣).

وأحل للرسول أن يتزوج أكثر مما يتزوج الناس. ولم يتزوج الرسول ما تزوج من

النساء لينعم بجمالهن، أو شبابهن ؛ وإنما تزوجهن بأمر الله، ولغايات يريدها الله تعالى.

فرسول الله (ﷺ) قضى شبابه حتى جاوز الخمسين عاماً من عمره فى مكة، لم يتزوج فيها بغير "خديجة" أم المؤمنين. (فى ذلك دليل على أن التعدد مباح وليس بواجب).

فلو كان الرسول (ﷺ) يريد المتعة لطالب بها فى وقت الشباب.

ولم ينتظر حتى يجاوز الخمسين.

ونعود فنقول لهؤلاء المرجفين الذين يتهمون النبي (ﷺ) رويدكم أيها المضللون وحسبكم!! إن الرجل الشهواني لا يطيق أن يصبر على عدد معين من النساء، لأنه يرى لذاته فى أن يتنقل من زوجة إلى زوجة، فيقضي مع هذه أسبوعاً أو شهراً ثم يبحث عن أخرى ليقضي معها الوقت الذى يليه، وذلك أمر ميسور للأشخاص العاديين الذين يستجيبون لشهواتهم. فترى الرجل منهم إذا أراد أن يتزوج بامرأة أعجبه حسنها وكان تحت يده أربع نساء يطلق الرابعة ثم يتزوج بمن يشاء. وتظل هذه العملية تتكرر كلما صرخ سعار الشهوة فى نفسه. وبهذه الطريقة يستطيع أن يتزوج بتسعين امرأة لا بتسع نساء.

ولابد لنا الآن أن نذكر كلمة موجزة عن الأسباب التى دفعت الرسول (ﷺ) إلى الزواج بسائر زوجاته:

موقف النبي بين قومه وأسباب زواجه :

خاطب الله الرسول (ﷺ) وقال: ﴿ **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ (الأحقاف: ٩).

وقال تعالى جل شأنه: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾النجم: (١ - ١١).

لقد تحدى القرآن كل من يتصدى لصحة تنزيله، فطأطأ أعداؤه رؤوسهم وما استطاعوا إنكاراً، وهذه آيات الله صريحة بما أمر الله به رسوله، وما قضى عليه بتنفيذ أمره، وما شهد له به من أن كل ذلك من عند ربه.

وكل من تقصى سيرة الرسول، وإن لم يكن من أتباعه وأنصاره. يعتقد أنه لم

يكن له (ﷺ) شأن خاص. فقد حملته أمه، ومات أبوه قبل وضعه، ووضعته أمه وماتت وهو صغير، وكفله جده عبد المطلب. وكانت له عنده منزلة خاصة. لا تفرقه عن أولاده وفلذات كبده وكان عبد المطلب: عظيم القدر، كبير الشأن، عالي المكانة فى قومه. محترماً فيهم، محبوباً عندهم، ولأولاده مكانتهم بينهم، فلما شب الرسول وترعرع خففت رعاية جده وعنايته به عنه عليه الصلاة والسلام لوعة الحرمان من والديه.

وقضى الله ولا راد لقضائه أن يموت جده. ولما يكتمل الثامنة من عمره وكانت هذه النكبة مما أظهر صبر الرسول وجلده وجعله موضع إعجاب قريش وأحاديثهم. وقد كفله عمه أبو طالب، وهو رقيق الحال، كثير العيال. لم تكن له مكانة عبد المطلب فى الثروة والمال، ومع ذلك فقد قرب ابن أخيه منه وآواه إليه وأنزله من قلبه منزلة أولاده لما كان يبدو منه من ذكاء، وعلو نفس، وهدوء، وسكينة، وعفة، وشمم، ونجابة.

ولما أراد عبد المطلب الخروج إلى الشام فى تجارة له، ولم يبلغ ابن أخيه الثانية عشرة من عمره اصطحبه معه. فبدت له منه أثناء الرحلة علامات المروءة والهمة. والشهامة، والكرامة وعرف عنه الجد والكد والعمل والنشاط.

وما اكتمل سن الشباب حتى بدت فيه علامات الرجولة والكمال، وقد عرف عنه عليه الصلاة والسلام. أنه كان جميل الخلقة، قوى الساعدين، صحيح البدن، معتدل القامة، كامل العافية، شديد القوى، وهو من أعظم قبائل العرب حسباً (قريش) وأكرمهم نسباً، وأعزهم جاهاً، وقد اشتهر بالأمانة، والاستقامة، وبُعده عن النقائص، وطيش الشباب.

وكانت السيدة خديجة بنت خويلد من أعظم نساء قريش جاها ومالاً وحسباً ومجداً، وقد تزوجت برجلين من عشيرتها ورغبت عن كليهما لطمعهما فى مالها إذ كانت تبعث بأموالها فى تجارة إلى الشام مع كل منهما.

وكان الرسول(ﷺ) قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره وعرف عمه عبد المطلب أن خديجة فى حاجة إلى من ترسله فى تجارتها فَوَدَّ مكاشفة ابن أخيه ليعلم رغبته فى القيام بتلك المهمة فأطاعه، وقبل رأيه، فأبلغ عبد المطلب ذلك إلى خديجة التى رحبت بالرسول الأمين، وبعثت به مع خادم لها اسمه ميسرة إلى الشام، وخرجت القافلة إلى

طريقها فى البيداء حتى إذا ما وصلت إلى الشام، واختلط الرسول برجال التجارة والأعمال، نال من قلوبهم منزلة روجت تجارة خديجة، وضاعفت أثمانها، فزاد ربحها، وتمكن من الاتجار بأموالها فى سلع أكثر رواجاً وأعظم ربحاً، وعاد بقافلته إليها، وميسرة يقص على مولاته عجائب ما شاهده من إخلاص وجهود ووفاء، فاكتسب قلبها ونال حبها، واشتد إليه ميلها، وأصبحت تتمنى زواجها منه وقد حقق الله آمالها، فخطبته لنفسها، وكافأها الله تعالى ببلوغ أمنيتها.

كانت السيدة خديجة فى الأربعين من عمرها، والرسول فيما يقرب من الخامسة والعشرين من عمره فهو فتى فى ريعان صباه وعنفوان شبابه، وهو رجل جميل الخلقة، طلق المحيا، كان ملهماً بأمر ربه. فقد نظر إلى مكانتها من قومها، وموقفها فى عشيرتها، وطهرها وعفتها.

· فتزوجها وعاش معها إلى أن بعثه الله نبيّاً، وأرسله هادياً ومبشراً ونذيراً فكانت أول من أسلم من النساء والرجال، فصدقته وعزرته ونصرته، وكان لهذا أثره العظيم فى قومها. لما لها من علو المكانة، وكبير التقدير عندهم. فأسلم الكثيرون، واستمرت تعاونه وتعضده، وعاشت معه عليه الصلاة والسلام إلى أن، بلغت الخامسة والستين من عمرها. وتوفيت بعد أن عاشرته خمسةً وعشرين عاماً لم يتزوج من غيرها. هذا يدل على أن تعدد الزواج ليس واجبا.

ولقد كانت خديجة رضوان الله عليها من خيرة الأزواج، وقد رزق بكل أولاده منها ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية التى أهداها إليه المقوقس. أما أولادها الذكور منهم: القاسم، والطاهر، والطيب، ومن البنات: زينب ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

· ومن آيات الله وحكمه؛ أن رفع إليه الأولاد الذكور قبل ممات الرسول وكان العرب يقيمون وزناً لمن يرزقون به من صبيان. فلما قضى الله أمره. ومات أولادهما قابله الوالدان بالصبر والرضا.

أما ما كان من عادات العرب من وأد البنات. فقد هدم الرسول هذا التصرف الشائن، وزوج كبرى بناته زينب إلى العاصي بن الربيع بن عبد شمس وكان لعمه ولدان: عتبة، وعتيبة. فزوجهما من ابنتيه: رقية، وأم كلثوم ولم يدخلا بهما وطلقاهما

فتزوجهما عثمان رضي الله عنه واحدة بعد الأخرى ثم ماتت خديجة. وعاشت فاطمة فتزوجت من على بن أبى طالب ابن عم أبيها، وهى الوحيدة من ذرية الرسول عليه الصلاة والسلام التى عاشت بعد رفعه إلى الرفيق الأعلى.

ضرب الرسول الكريم المثل الأعلى فى الصبر لحكم الله، والرضا بقضائه فقد مات كل أولاده الذكور حتى إبراهيم، وهذه من آيات الله وحكمته. إذ ربما إذا بقى أحد من أولاده الذكور بعده. يكون مثار القول فى خلافته لأبيه. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

جرى من أمر الله حدث فى حياة خديجة رضوان الله عليها كان له شأن فيما بعد. ذلك أن عرض عليها من الرقيق شراء عبد اسمه زيد بن حارثة– فاشترته وتبناه الرسول، وكان العرب يسمون من يتبنونهم أدعياءهم، فأصبح هذا العبد الرقيق دَعِيّاً لرسول الله (ﷺ) وله قصة سنوردها على حقيقتها لأن أعداء الرسول حرفوا حقيقتها، وصوروها بما أملى عليهم الحقد والحسد.

وسوف نفرد باباً مستقلاً عن حياة السيدة خديجة رضي الله عنها حيث أنها من دعائم بيت النبوة.

أما أزواج النبي أمهات المؤمنين حسب ترتيب زواجه منهن بعد وفاة خديجة عليها الرحمة والرضوان :

أولاً: السيدة "سودة بنت زمعة" أرملة السكران بن عمرو.

ثانياً: السيدة "عائشة بنت أبى بكر الصديق" وهى التى سنفرد لها باباً مستقلاً نذكر فيه شيئاً من سيرتها العطرة الزكية.

ثالثاً: السيدة "حفصة" بنت عمر بن الخطاب أرملة خنيس بن حذافة.

رابعاً: السيدة "زينب بنت جحش" مطلقة زيد بن حارثة.

خامساً: السيدة "زينب بنت خزيمة: أرملة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.

سادساً: السيدة "هند بنت أبى أمية الشهيرة بأم سلمة" أرملة عبد الله بن عبد الأسد.

سابعاً: السيدة "أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان" أرملة عبيد الله بن جحش.

ثامناً: السيدة "ميمونة بنت الحارث الهلالية" خالة خالد بن الوليد.

تاسعاً: السيدة "جويرية بنت الحارث" أرملة مسافع بن صفوان المصطلقى.

عاشراً: السيدة "صفية بنت حيي" أرملة كنانة بن أبى الحقيق.

. وكلهن أرامل ثيبات ماعدا عائشة رضوان الله عليها ؛ وسنأتي على تفصيل زواج كل واحدة منهن ومناسباته وملابساته.

* * *

سيرة زواج السيدة
سودة بنت زمعة رضوان الله عليها

امتاز المهاجرون والأنصار بحسن بلائهم، وقوة دفاعهم، لنصرة دين الله، وكان من أنصار الرسول عليه الصلاة والسلام " السكران بن عمرو" وقد هاجر إلى الحبشة مرتين تصاحبه فيهما زوجته السيدة "سودة بنت زمعة" وقد أسلمت وأحسنت إسلامها، وكانت من فضليات النساء تحملت المشاق والمتاعب فى سبيل الهجرة، ولما عادا من الحبشة بعد هجرتهما الثانية توفى زوجها، وتركها من غير عائل ولا معين، وقومها رجال أشداء غلاظ القلوب فهم أكثر مقتاً لرسول الله، وأشد عداوة له، وقد جاوزت الخامسة والخمسين من عمرها. فلما سمع بأمرها رسول الله خشي عليها إن عادت إلى قومها وهم كفار وتمسكت بإسلامها فإنهم يفتكون بها أو يردونها عن دينها أو يفتنونها فيه. أو تدوم معاكستهم وتعذيبهم لها، وليس من خُلُقِهِ عليه الصلاة والسلام عدم النجدة، وقلة المروءة. لاسيما وأنها فى سن ربما لا يقبل عليها من يتزوجها، فرأى من مكارم أخلاقه أن لا يتركها هدفاً لسهام قومها، وعرضة للعوز والحاجة، وأن أحسن ما يقابل به حسن بلائها واعترافاً لزوجها، وجهاده فى سبيل الله ؛ وأعظم ما يكافئها به أن ينقذها من مأزقها، ويتزوجها ولو أنها تفوقه فى العمر، وتقل عنه جمالاً فى الخلقة، لأنه لم ينصرف إلى الشهوة بل كان يعمل لنجاح رسالته، وتم له ما وفقه الله له. فقد قابل قومها هذا النبل، وسمو الخلق، وقدروا هذا الصنيع الجميل، وأكبروا أنه عليه الصلاة والسلام يؤثر الفضل لغيره خدمة لدين الله، ومكافأة للمجاهدين فى سبيله فعظموا هذه الشمائل، وذلك الشعور. فأسلموا وأحسنوا إسلامهم، إكباراً لعظيم همته، وإعجاباً بمروءته وصاحبوه فى كل غزواته، وناصروه وعاشت معه، ولم يعقب

منها إلى أن توفيت إلى رحمة الله بعد أن عاشرته ما لا يقل عن عامين كاملين.

ومن ذلك يكون الرسول قد تزوجها، وهى ثيب، تفوقه فى العمر، وهو فى زهرة الصبا وعنفوان الشباب، وهو مبعوث للناس كافة، فماذا كان يمنعه عن زواج عذراء إن كان ينصرف إلى الشهوة واللذة، فضلاً عن حياته الطويلة التى قضاها مع السيدة خديجة، وقد كانت من قبل ثيباً؟؟ اللهم لولا علو همته، وعظيم مروءته. لأنه لا يعمل إلا بأمر ربه، وليس له من الأمر شيء، ولم يحفل بالدنيا ومتاعها، وما عند الله خير وأبقى.

هذا حاله عليه الصلاة والسلام مع زوجته السيدة سودة بعد حياة طويلة مع السيدة خديجة من قبل.

سيرة زواج

السيدة عائشة رضوان الله عليها

لا يجهل إنسان قدر أبى بكر الصديق رضي الله عنه. ومكانته من رسول الله ومنزلته التى منحها الله له. إذ فاز بشرف صحبة الرسول، وأنزل الله سيرتهما فى القرآن: **﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾** (التوبة: ٤٠)..

هذا فوق جهاده فى سبيل الله بأمواله، وجوده بما يملك لإعلاء الحق، وإعلاء الدين، وما عرف عنه من إخلاص، ووفاء لرسول الله، فإنه كان عزيز قومه وعظيمهم، وغنيهم، وأعلاهم قدراً، وكان إسلامه من أول دلائل النصر المبين. فنال بذلك قلب الرسول، فعظمه وكرمه وقربه منه، وأوثق رباط تلك المكانة العظيمة والمنزلة السامية برباط المصاهرة، فتزوج من ابنته عائشة رضوان الله عليها، ومن عرف تاريخ" هذه الحميراء"(هذا من باب المداعبة فى التصغير). التى قيل عنها" خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" وعلم بمكانتها وتمكنها فى الفقه فى الإسلام، والأدب والحكمة تحقق حكمة الله السامية فى زواجها من رسول الله، لأنها كانت بحر علم زاخر، وخزانة حكمة وتشريع، وقوة كامنة للاحتفاظ بسنة الرسول، ونشر أحكام الدين.

وكان هذا الزواج مدعاة لتنافس العشائر والقبائل لينالوا هذا الشرف، فأذكى الغيرة فى قلوبهم. وتسابقوا إلى الإسلام، ولما أن عمرت نفوسهم بنور اليقين انقلبت

غيرتهم حماساً دفع بهم إلى التنافس للفوز بنشر دين الله، وهنالك أدركوا حكمة العزيز الحكيم بإيجاد هذه الرابطة بين الرسول، وكبار رجاله من المؤمنين، وتكريم الصديق رضي الله عنه بهذا الشرف العظيم.

هذه حكمة الله فى زواج الرسول من عائشة فهو لتقوية حلقة الاتصال بين النبي وأنصاره، ولما كانت عليه من عقل وذكاء لتعي التشريع. فتنقله إلى المؤمنين والمؤمنات وهى التى تزوجها بكراً عذراء فى جميع زوجاته. وسوف نذكر فيما بعد باباً عن حياة السيدة عائشة رضي الله عنها حيث إنها من دعائم آل البيت.

سيرة زواج

السيدة حفصة رضوان الله عليها

قارب الرسول (ﷺ) الخامسة والخمسين من سنى حياته، ولم يكن تشريع تعدد الزوجات، ولم يكن له من نسائه إلا عائشة رضوان الله عليها، ولما نزل حكم الله بتشريع التعدد، وكان الفاروق عمر بن الخطاب قد أسلم، وأعز الله الإسلام بإيمانه، وكانت ابنته "حفصة" رضوان الله عليها متزوجة من خنيس بن حذافة، وهو من أشد أنصار رسول الله (ﷺ)، ومن كبار الفوارس المقاتلين الذين ضربت الأمثال ببسالتهم. إذ سجل له التاريخ أنه كان فى موقعة بدر. كلما أصيب بجرح ضمده، وعاد إلى القتال حتى مزقت النبال جسده، وخارت قواه، فاستشهد فى سبيل الله، وترملت زوجته حفصة، وهى بدورها فى ميدان القتال. تسعف الجرحى، وتضمد جراحهم، وتروى بالماء غليلهم. وتؤاسى بطيب الكلم عليهم، ولزوجها من قلبها إخلاص الزوجة الصالحة. فحزنت لموته، وأصابها الضعف والمرض فوالى رسول الله مواساتها. لمرضها وموت زوجها، وتزوجها تكريماً لها، وإكراماً لزوجها، وتعويضاً عما أصابها، ومكافأة لأبيها، وتوثيقاً للرابطة معه، وللفاروق مكانته السامية بين قومه، ولم تكن مع ضعفها ذات جمال ولا عذراء ناهدة. بل تزوجها ليعلم الناس رغبته فى إحكام أواصر الجامعة الإسلامية وتوثيقها باتصال زعماء المسلمين، توحيداً للكلمة، وتنظيماً لصفوف المجاهدين، كل هذه أدلة على زهده فى الدنيا، وإعراضه عن متاعها، ودأبه المتواصل فى خدمة الدين، وهكذا أصبحت مكانة الصديق، والفاروق من الرسول منزلة

الوزيرين المؤمنين المخلصين.

هذا مثل صالح لحسن السياسة والكياسة بدا من الرسول النبي الأمي صلوات الله عليه وسلامه.

سيرة زواج السيدة

زينب بنت جحش رضوان الله عليها

آشرنا إلى ما حدث فى عهد خديجة أم المؤمنين من شراء عبد رقيق اسمه "زيد بن حارثة" وما كان من تبني الرسول له، وقلنا إن لهذا الحادث شأناً، ولذا نقول: كانت العادة عند العرب: إذا تبنى الرجل فتى أو فتاة سمي دعيه أو دعيته وجمع ذلك أدعياء، وكان زيد بن حارثة دعيَّ النبي (ﷺ)، ومن عاداتهم أيضاً أن لا يجعل للدعي المتبني إلا حق المولى أو الأخ فى العشيرة، وهم يرغبون عن اتصال الأدعياء بالعشيرة أو بنسبها، وإعطائهم حقوق الأبناء فى النسب أو الميراث، وفى ذلك ما يشعر الأدعياء بمساس فى شعورهم وإيلام لنفوسهم، فقد جاء الإسلام فوحد بين منازل أهله، ولم يفرق بين عربي وأعجمي، أو حر وعبد، ولا يرضى أن يشعر العبد بعبوديته والرقيق برقه، وقد ساوى بين الجميع، والله سبحانه وتعالى يقول **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** (الحجرات: ١٣). لهذا أراد جلت قدرته أن يهدم تلك العادات، ويوحد فى تشريعه بالمساواة بين الجميع ليبين أن الكبرياء والخيلاء من دلائل الشر والخضوع، والتواضع من علائم الخير، وإنما المؤمنون إخوة تجمع بينهم رابطة الإيمان، ودعامة الإسلام.

وكان للرسول عليه الصلاة والسلام ابنة عمته زينب بنت جحش عذراء جميلة فأوحى الله إليه أن يعتق دعيه زيداً ثم يزوجه من ابنة عمته زينب. فقام الرسول بأمر ربه، وأخبر زينب وأخاها عبد الله بن جحش بما أمر الله به، فرغبا عن هذا الزواج، وشمخت زينب فى كبرياء، وهى الهاشمية القرشية، وابنة عمة رسول الله. كيف بها تتزوج من عبد رقيق مشترى بالمال وإن أعتقه الرسول، وعظم عليها وأخيها الأمر، وأبيا أن يصاهرا زيداً.

فأنزل الله على رسوله (ﷺ) الآية: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾**. (الأحزاب: ٣٦).

فلما سمع عبد الله بن جحش وأخته زينب بالآية، وعرفا أنهما المعنيان بها، أخذتهما الرهبة والخوف من غضب الله وخضعا لأمره، ورضخا لما أشار به رسول الله وقبلا زواج زينب من زيد، وقد تم ذلك.

أى إن زينبَ (زينب: اسم ممنوع من الصرف (لا ينون)،التى كانت عذراء بكراً جميلة أمام أعين رسول الله (ﷺ)، ولم ينظر إليها، ولم يفكر فى زواجها وزوجها إلى دعيه "زيد بن حارثة" بناء على أمر ربه، وقد رفضت فى أول الأمر. ثم رضخت بعد نزول الآية إطاعة لأمر الله.

إلا أن زينب شمخت على زيد وتعاظمت عليه، وشددت فى معاملته. إلى حد أن كثرت شكاويه منها إلى رسول الله، وهو (ﷺ) يدعوه إلى الصبر والأناة، ويهدئ من ثائرته حتى نزلت الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

فلما تزايد تعاظمها عليه نزلت الآية — وتفسيرها — وإذ تقول يا محمد لزيد الذى أنعم الله عليه بالإسلام. وأنعمت عليه بعتقك له وتبنيك إياه، لا تطلق زوجك واحرص عليها واتق الله. ثم إنك يا محمد تحتفظ بأمر ربك الذى بيديه، وتساير الحال إلى أن يحين وقت التنفيذ، ولا تعلنه للناس منعاً من تَقَوُّلاتهم وتخرصاتهم، والله لا يخاف شيئاً فهو يعلنه، وأولى بك وأنت رسول الله أن لا تخاف ولا تخشى سواه. فلما تزوج زيد وعاشر زينب وطلقها أمرناك أن تتزوجها. للحكمة التى يريدها الله، وهى إبطال عادات العرب التى تمنع زواج المؤمنين من أزواج أدعيائهم بعد طلاقهن منهم. وكان أمر الله مفعولاً لا مرد له. وكان هذا التشريع بعد نزول الآية الشريفة: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ (الأحزاب: ٤).

وبعد أن نزلت الآية الكريمة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي

حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (النساء: ٢٣).

فالأدعياء ليسوا كالأبناء الذين من الأصلاب، وقد حرم الله زواج الآباء من زوجات أبنائهم الذين من أصلابهم كما حرم زواج الأبناء من أزواج آبائهم ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم﴾ (النساء: ٢٢).

. فكانت حكمة الله السامية من زواج الرسول من زينب، وهي ثيب تزوجها مولاه الذي أعتقه. ثم طلقها. هي المساواة في الإسلام بين السيد والمسود، والقول المأثور "الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشيّاً، والنار لمن عصاني ولو كان أميراً قرشيّاً" ثم القضاء على أعمال الجاهلية.

هذه هي قصة زينب بنت جحش، وقد أطلق أعداء الرسول لأنفسهم عنان الطعن والتجريح، وأكثروا من أباطيلهم وأضاليلهم واتهموه بالشهوة والميل للنساء واللذة، والحقيقة ظاهرة أعمتهم الأهواء والأغراض عن بحثها وإدراكها، ولو أنهم فعلوا لتحققوا أن الرسول العربي الهاشمي القرشي، وهو من أرسخ القبائل مجداً، وأعظمهم حسباً. وأعلاهم نسباً، وهو نبي الله إلى الناس كافة، ما كان يرضى أن يزوج ابنة عمته بمالها من قرابة به (ﷺ) وصلة به وبحسبه من عبد رقيق اشتراه بماله، ثم أعتقه لولا خضوعه لأمر ربه ومولاه، وكيف يرضى أن يتزوجها من بعده، وهو خادمه ومولاه، وكانت العرب يتزاحمن لينلن هذا الشرف العظيم.

ومن ناحية أخرى:

لولا إرادة الله لوضع هذا التشريع الخاص بالأدعياء، ومنع إساءة معاملتهم. لما تبنى الرسول (ﷺ) زيداً، وكان أولى به أن يتبنى من أبناء العشائر والقبائل من يتفق مع حسبه ونسبه عليه الصلاة والسلام. وأيضاً ماذا كان يمنعه من زواجها، وقد كانت عذراء ناهدة، وقبل أن يعاشرها عبده ومولاه، وليست العذراء البكر كالثيب. هذا فوق أن الدليل الواضح على أنه (ﷺ) كان منفذاً لأمر ربه، هو أن زيداً قاسى من معاملة زينب له ما كان يجأر به للرسول من الشكوى منها، فإذا كان يميل إليها أو يهواها كما

يفتري المضللون، وكان الأحرى به أن يقول لزيد: طلقها وتخلص منها. لا يقول له "امسك عليك زوجك واتق الله" أو كان يتخذ شكواه له منها تكأة لنيل غرضه والوصول إلى غايته، ولكنه على الضد كان يسترضيه ويطيب خاطره، ويطلب منه التؤدة والتمهل ويقول له "اتق الله".

غير ذلك: كان تعدد الزوجات شائعاً بين العرب قبل رسالته عليه الصلاة والسلام كما ذكرنا، وتزوج السيدة خديجة في سن الشباب والفتوة، وهي تفوقه في العمر، ولم تكن ابنة عمته بعيدة عنه فما الذي منعه من زواجها قبل مشترى زيد وقبل تبنيه وقبل عتقه؟؟؟. اللهم إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

إن هؤلاء الخراصين الذين يتقولون على الرسول ليس في مكابرتهم إلا ما يرد كيدهم في نحورهم، وهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وليعلموا أن الله الذي يخاطبه عليه الصلاة والسلام بقوله: **﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾** (الأحزاب: ٣٧). وهذا ما يرفع قدره، حيث إنه (ﷺ) وهو نبي الله فإنه إنسان بشر، له نفس حساسة تشعر وتدرك. وله من قومه خصوم يتربصون به الوقيعة. فكيف به يتزوج من امرأة كانت تحت خادم له وماذا يبعده عن تعييرهم له وتشهيرهم به، وماذا يتقولونه عليه بعد هدمه، ومخالفته لعاداتهم، ولكنه– عليه الصلاة والسلام– خضوعاً لأمر ربه لا يقف عند حد هذا التفكير، والله قد أمره، وهو جل وعلا أحق أن يخشاه، وفي ذلك كله غاية التقدير من ربه له، وفيه الإشارة إلى إطاعته وتنفيذ أوامره، حتى يتم ما يريده الله من التشريع وقد شهد الله له في كتابه العزيز: **﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾** (النجم: ٢– ٥).

هذه هي قصة زينب على حقيقتها من غير تحوير أو تبديل، فاعتبروا يا أولي الألباب. وهي ظاهرة أن الله أمر رسوله بشراء زيد ثم ألهمه عليه الصلاة والسلام أن يتبناه بعد عتقه ثم أن يزوجه من زينب وقد أعلمه أنها ستطلق منه ليتزوجها النبي الأمين حتى يساوي بين المسلمين سادتهم ومواليهم ويؤلف بين قلوبهم.

سيرة زواج السيدة

زينب بنت خزيمة رضوان الله عليها

حفظ التاريخ للمجاهدين في سبيل الله عظمة استبسالهم في موقعة بدر، وسجل لهم ما لاقوه من الأهوال لنشر الإسلام ورفع رايته. وقد شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بالشجاعة والفروسية، وكان من بين أبطال هذه الموقعة الأفذاذ. المبرزين: البطل المقدام عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فقد أبلى بلاء حسناً، وصمد للأعداء حتى استشهد في سبيل الله، وكانت زوجته زينب بنت خزيمة من فضليات المؤمنات لم تترك ميدان القتال لحظة، وهي تقوم بواجب الإنسانية. من تضميد الجراح وإسعاف المرضى، ومواساة المجاهدين. فلم يلهها موت زوجها. ولما علم بأمرها رسول الله (ﷺ) آواها إليه، وتزوج منها جبراً لخاطرها، ومكافأة لزوجها، وتقديراً لعملها المجيد، ولم تعمر غير عامين بعد حتى توفاها الله وأسكنها فسيح جناته.

سيرة زواج السيدة

هند بنت أبى أمية

الشهيرة بأم سلمة، رضوان الله عليها

. كذلك سجل التاريخ للمجاهدين مفاخرهم فى موقعة أحد، وضربت الأمثال بثباتهم، وقوة جلدهم، ومغامرتهم وبيعهم الأرواح فى سبيل مرضاة الله بغير ثمن، ولو تمشدق المتمدينون بصفات نسائهم، ونسبوا إليهن العجائب وكن عندهم رسل الرحمة، فأولى بالمسلمين أن يفاخروا بنساء العرب فى عهد الرسول والعهود الزاهرة للإسلام فقد كانت من شهيرات النساء اللاتي قمن بواجب الإنسانية فى موقعة أحد السيدة " هند بنت أبى أمية الشهيرة بأم سلمة" إذ كانت من العاملات وراء صفوف المجاهدين تحرضهم على القتال، وتبعث فيهم روح الحماسة والاستبسال، وتسعف الجرحى والمصابين، وتهيئ الطعام والزاد للمقاتلين، كما أنها رافقت زوجها عبد الله بن عبد الأسد فى هجرته إلى الحبشة قبل موقعة أحد ولاقت معه هناك شدائد وأهوالا، وفى موقعة أحد أبلى عبد الله بلاء حسنا حتى أصيب بجراح دامية، ولما أن عوفي منها عقد له الرسول (ﷺ) لواء قتال بني أسد فقاتل جهاد المستميتين، حتى عاودته جراحه واشتد ألمه ولزم فراشه. فعاده

الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يحتضر، ومكث بجواره حتى أغمض عينيه بيده الشريفة ودعا له بالجنة ثم عزى أم سلمة وواسها وربت على أكتاف أولادها العديدين.

والمشهور عنها: أنها كانت قد سمعت عن رسول الله يقول "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع فيقول: " اللهم آجرني فى مصيبتي، وأخلفني خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها". (رواه البخاري ومسلم فى صحيحيهما).

وداومت على هذا الدعاء حين استشهد زوجها، وكانت بعد استشهاد زوجها تدعو به صباح مساء تسائل نفسها: من هو الذى سيكون خيراً من أبى سلمة وهو رجل نال صحبة الرسول. وهاجر إلى الحبشة، وشهد المشاهد كلها وأغمض الرسول (ﷺ) عينيه بيده الشريفة، ودعا له بالجنة؟؟؟ واستمرت على دعائها، وما انقضت أربعة أشهر على وفاة زوجها والرسول مشفق على أولادها وقلة من يعولهم. فدعاها إليه، وطيب خاطرها، وتزوج منها، ليعول أولادها، ويكفلهم. جزاء لحسن عملها، ووفاء لإخلاصها، ومتين إيمانها أليس هذا دليل على النبل. وسمو القصد، والبعد عن الدنيا، والزهد فى متاعها؟ هذا هو المثل الأعلى للشهامة والهمة، والنجدة، والمروءة، وما كان أغناه عليه الصلاة والسلام. عن تحمل المسئولية ليعول أولادا غير أبنائه ويقوم بتربيتهم، وقد تجاوزت أمهم الستين من عمرها؟ وعنده الكواعب الأتراب، والناهدات الأبكار. إن كان يرغب فى الشهوة واللذة!!

إن حكمة الله الذى يوحى إليه (ﷺ) بأمره. كانت بارزة فيما ظهر عن هاته المتكهلات من أزواج الرسول أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، وقد كن رسل الدعاية، وأعلام الهداية، ونشر أحكام الدين بين نساء المؤمنين. فيما يختص بالزوجات، والأمهات؛ والمرضعات، والمطلقات، وفى جميع تطورات الحياة للفتاة والمرأة مثل الطهارة، والوضوء والغسل والمحيض، والنفاس. والولادة والرضاعة، وغير ذلك من كثير الأمور التى لم يكن الرجال يستطيعون نشرها، وتعليمها للنساء، ومتقدمات السن فقد كن أوسع صدراً، وأكثر أناة للشرح والتفصيل، وهذه هى إرادة الله العزيز الحكيم، وكفى بموقف السيدة عائشة رضوان الله عليها دليلا على ما وعته عن رسول الله فى كثير من التشريع، وما كان لها فضل تثبتها منه عليه الصلاة والسلام، وكذلك شأن السيدة أم سلمة مع نساء عشيرتها وقبيلتها وغيرهن.

سيرة زواج السيدة

أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان رضوان الله عليها

فى سيرة أم حبيبة مثل يجعل الجاحد الحقود المتعنت يخر لله ساجداً. أمام هذا التشريع الإلهي الذى ملأ قلوب المؤمنين والمؤمنات يقيناً بفضل لله ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ؛ وإنهم كانوا يبيعون أنفسهم رخيصة بغير ثمن فى سبيل مرضاة الله، وتعزيز رسوله الأمين، ويقف الرسول على جهودهم وجهادهم وتضحيتهم، فيحمد لهم عملهم ؛ ويعوضهم خيراً بفضله، وهمته ومروءته ونجدته وذلك أن السيدة أم حبيبة تزوجت من عبيد الله بن جحش، وكان قد أسلم وهاجرت معه إلى الحبشة، وفيها ارتد عن دينه واعتنق النصرانية ومات عليها وكانت قد هجرته زوجته ورغبت عنه ونبذته، وهى غريبة عن بلادها. وقد تبرأت منه وما لانت إلى توسلاته ؛ فحرمت هنالك من المعين والنصير. وتمسكت بإسلامها، وقاست شدائد، ولاقت متاعب وصعائب حتى عادت إلى المدينة، وفيها رسول الله (ﷺ)، ولا يفوتنا أن نذكر أنه حين علم (ﷺ) بما جرى من زوجها وتمسكها بإيمانها بعث إلى ملك الحبشة يعلنه بخطوبتها لنفسه الشريفة حتى لا يمسها بسوء، وحتى تحفظ كرامتها. ثم ليعرف أنها وهى خطيبة الرسول تكون أولى بالرعاية والعناية بها.

فلما قابلت النبي بعد عودتها آواها إليه– وهى ابنة عمه "أبى سفيان"– وأكبر فيها قوة اليقين وشدة الإيمان وتمسكها بالإسلام ولذلك كله وتقديرا لموقفها الشريف، ومكافأة لها عرض عليها زواجه منها فقبلت وكانت قاربت الستين من عمرها.

ويحفظ لها التاريخ: أنها بعد أن نالت شرف زواجها من الرسول، وفازت بحفظ إيمانها، وكمال يقينها وتشرفت بفضل الهجرة. وأتم الله أنعمه عليها. قدم إليها أبوها فى أحد الأيام، وأقبل عليها ليدعوها إلى الكفر، ويغريها إلى الردة. فدخل بيتها، ولما رغب فى الجلوس على فراشها، طوته ومنعت يده من لمسه، أو الاقتراب منه، فاشتد غضبه وقال لها: أراغبة بهذا الفراش يا بنية عنى؟ أم بي عنه ؟ فأجابته على الفور: به عنك. لأنه فراش رسول الله (ﷺ) وأنت رجل نجس غير مؤمن. فغضب عليها وقال: لقد أصابك بعدى شر. فقالت له لا والله بل خير، علم الناس ذلك عنها. فارتفعت بين المؤمنين

مكانتها، وعظم فى المؤمنات قدرها. ولا غرو فهى من أمهات المؤمنين. وكلهن المثل الأعلى فى الإيمان وحسن اليقين. ليس بعجيب أو مستغرب هذا فإن نور اليقين حال بين قلب الابنة المؤمنة والأب المشرك، وعمَّر قلبها. بالشجاعة. والجرأة، فلم تخش سطوة أبيها، ولم تخف غضبه. فألقت عليه درساً، دك قواه، وَهَدَّ حِدَّته، وهدم شدته، فكانت مهيبة الجانب، أرهبته بقوة اليقين وردته بالفشل والخسران المبين، وما كان من زواج رسول الله منها إلا تقديراً لفضلها ونجاتها من شر أبيها، لا رغبة فى اللذة والمتعة.

سيرة زواج السيدة

ميمونة بنت الحارث الهلالية رضوان الله عليها

كانت واقعة تبوك، وبطلها سيف الله القاطع خالد بن الوليد المجاهد فى سبيل الله، ورافع لواء النصر وعنوان الفروسية والشجاعة، وسداد الرأي وحسن التدبير، وكانت السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية، بين صفوف المجاهدين تقوم بواجبها الإنساني، وقد ترملت من زوجها والمعروف عنها أنها أول من ألف فرقة نسائية لإسعاف الجرحى والمرضى والقيام بواجبات المجاهدين، وأنها وهى تحمل الماء لإسعاف الجرحى أصابها سهم كاد يقتلها، ولما وضعت الحرب أوزارها، وأصبحت لا عائل لها ولا معين، وابن أختها بعيد عنها فى جهاده الدائم المستمر، سمع بأمرها رسول الله فآواها إليه وتزوج منها، وقد زادت عن الستين من عمرها، إكراما لها، وجبراً لخاطرها، وترغيبا لقومها. الذين أكبروا هذا الفضل والمروءة فأسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجا وأحسنوا وداموا على مؤازرة الرسول (ﷺ).

سيرة زواج

السيدة جويرية بنت الحارث رضوان الله عليها

ضرب الرسول المثل الأعلى فى المروءة والفضل مع السيدة جويرية بنت الحارث وهى سيدة قومها وابنة المصطلق. فقد كانت موقعة بني المصطلق يتولى قيام القوم " مسافع بن صفوان المصطلقى " وقد أشرب قلبه بعداوة الرسول إذ كان من آلد أعداء الإسلام، وأشدهم إيذاء للمسلمين وأقساهم عليهم قلباً، وقد هد الله كيانه، وهدم بنيانه فى يوم "المريسيع" حيث مات كافراً. وقد وقعت فى الأسر زوجته السيدة جويرية

بنت الحارث وهى كما سبق سيدة قومها. فعلم بأمرها رسول الله (ﷺ)، فأمر بإعزازها، وتكريمها وحسن معاملتها، ثم أعتقها، فعظم الأمر عندها، وقدرت هذا الفضل العظيم، وتقدمت إلى الرسول. وأعلنت إسلامها وجميع قومها، فحذا المجاهدون حذو النبي وأعتقوا أسراهم فقدرت هذا الصنيع الجميل، وتزوجت من رسول الله (ﷺ). وصاروا من أشد أنصاره ومؤازريه فدخل قومها وأنصارها فى دين الله أفواجا، وتم ما أراده عليه الصلاة والسلام. من انضمامهم إليه، يعجز الكاتب عن تكييف هذه التصرفات، إلا إذا عمر قلبه بالإيمان وقاتل شيطان الغرض، وأضاء الله بصيرته، فإنه إذا قدر تصرفات الرسول الأمين. تحقق أنه (ﷺ) كان لا يهمه إلا نشر دعوته، ورفع لواء الإسلام، وكان القدوة الحسنة لأمته فإن عمل المجاهدين بتقليدهم له فى عتق أساراهم، وقع في نفوس الأعداء موقع التقدير، وقد رفعت الغشاوة عن أعينهم فآمنوا بالله ورسوله(ﷺ). وانقلب عداؤهم له ولاء، وخصامهم معهم وفاقا ووفاءً، وبغضهم له محبة، وله مودة. ثم كانت أعمالهم خدمة الدين الذين باعوا أنفسهم رخيصة فى سبيل إعلاء شأنه ونشر تعاليمه.

سيرة زواج

السيدة صفية بنت حيى رضوان الله عليها

من أول عهد الرسالة، واليهود لا يفترون عن نصب شباك الشر، وأحابيل الضرر للرسول، وقد كمنت عداواتهم فى نفوسهم، يبدون منها الكثير فى بعض المواقع التى لم يكن النصر مؤازراً للمسلمين فيها، إلى أن كانت موقعة خيبر، وقد برز فيها بنو النضير، وثارت ثائرة اليهود: واشتد حماسهم وكان على رأسهم سيد قبيلتهم حيى بن أخطب، وله ابنته صفية بنت حيى تفوز بزعامة قومها، وإكبارهم وإعزازهم لها: ولها مكانة عالية عندهم، وكلمة مسموعة فيهم. وهى متزوجة من إسلام بن مشكم القرظى- ولما اشتد القتال، وحمى وطيس النزال. كان "حيى" يتقدم المقاتلين من قومه، ويحضهم على الإقدام ويحرضهم على القتال، وكان يُزَكى فى نفوسهم جذوة الانتقام من المسلمين فأهلكه الله ومات ومعه كثيرون من بنى قريظة، ودامت موقعة خيبر، غير أن "إسلام بن مشكم" زوج السيدة صفية كان قد هجرها، بعد موت أبيها، فتزوجها

من بعده — كنانة بن أبى الحقيق— فقتل كنانة أيضاً وتم النصر للمسلمين، فأسروا الكثير من المقاتلين ونساءهم، ومن بين الأسارى السيدة "صفية بنت حيى"، وكانت شديدة الانتصار لقومها تحرضهم على مقاتلة المسلمين، ولم تتوان فى تجهيز موتاهم حتى لا يعبث بها المجاهدون وما كانوا ليفعلوا فلما علم الرسول (ﷺ) بأسرها. أعتقها فى الحال. فقابلت مكارمه بإسلامها، وتقدمت تمد يدها إليه تطلب زواجها منه، وقد تبعها قومها فأسلموا جميعهم فأجاب طلبها وتزوجها، وهى مكتهلة تزوجت باثنين من قبله، ولكنه أكبر عملها فكافأها بقبوله زواجها، وكف اليهود أيديهم عن إيذاء المسلمين بسبب ذلك، وامتنعت علانية دسائسهم، وأحبطت حبائل مكرهم. إذ كانوا لا ينفكون عن تحريض القبائل، ودس الخرافات والخزعبلات. وما يظنون به إفساد عقائد المسلمين، وهذه آثارها باقية إلى الآن فى البدع والدخائل.

وهذه هي آخر نساء النبي (ﷺ):

أما **مارية القبطية**: فقد أهداها إليه المقوقس ورزق منها بولده إبراهيم، وقد توفى قبل رفعه عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى.

ثم نزلت الآية الكريمة **﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾** (الأحزاب ٥٢).

فلم يتزوج بعد من ذكرن، وقام بأمر ربه فى الانقطاع لنشر دعوته وإعلاء شأن دينه، حرى أن يلقى الله آمناً مطمئناً بعيداً عن الشهوة العارضة، واللذة الزائلة.

. لقد جعلت كلمتي فى سرد قصص أزواج النبي عليه الصلاة والسلام، لا رغبة فى دحض مفتريات الدساسين فحسب، ولا دفاعاً عن هذا الرسول الأمين، لأن أعماله وأفعاله. هى التى تنطق بفضله ونبله، ولكني أرجو أن ترفع الغشاوة عن أعين أعدائه الجاحدين وخصومه الماكرين المضللين **﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** (التوبة ٣٢، ٣٣).

ولو وعى أعداء الرسول ما كانت عليه قبائل العرب من تبرج النساء، وخروجهن سافرات. لا يتورعن عن إبداء زينتهن وإظهار جمالهن لغير أزواجهن. أدركوا أنه لم يكن

عسيراً على الرسول اختيار من تصبو إليها نفسه وكان تعدد النساء مباحاً. ولكنه بعيد عن الشهوات، وما كان زواجه إلا لحِكَم أرادها الله وأعلن بها فى كتابه العزيز حين خاطبه فى شأن أزواجه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ✿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ✿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ✿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ✿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ✿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ✿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾(الأحزاب ٢٨: ٣٤).

فهؤلاء هن القدوة والمثل الأعلى للنساء والمسلمات المؤمنات فهل تحقق أعداء الرسول بعد هذا كله أن الله جلت مشيئته أراد أن يزوجه بأمهات المؤمنين المتكهلات ليذكرن بين الأهل والأقارب، والقبائل والعشائر ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله وأوامره وتشريعه وحكمه لنشر تعاليم دين الله. وإيجاد الحرية فى المباحثة والمناقشة؟؟

اللهم إنه الحق وقد أظهرته، والصدق وقد أعلنته، والواقع وقد أوضحته لعل المتبجحين يقفون عند حدهم. ويتوبون إلى ربهم، ويرجعون عن ضلالهم ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً ✿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾(الإسراء ٨٠: ٨١).

لأن الإسلام دين عفة وطهارة ونقاء وفضيلة وقد كانت أمهات المؤمنين خير مثال وخير قدوة لبنات المسلمين وبهن يتحقق خير مثال وخير قدوة لبنات المسلمين وبهن تتحقق أركان الدعوة المحمدية المثل الأعلى للخلق العظيم وكذلك أهل بيته زوجاته وبناته وذريته (ﷺ).

مـاريـة

[قصة مارية القبطية : مارية وإبراهيم]

مارية وعائشة : (تعليق)

كانـت "ماريـة" جاريـة حلـوة، نـشأت في قريـة مـن صـعيد مـصر، اسمهـا "حفـن، قريبة من أنصنا"، على الضفة الشرقية من النيل، تجاه "الأشمونين" "بالمنية" وكـان أبوهـا من القبط"، وأمها "رومية"، وقد نشأت هـي وأختهـا "سـيرين" في قـصر "المقـوقس" وتأدبـت بالآداب المسيحية.

وكان المقوقس من علماء هذا الدين، والمطلعين على كتب الأنبياء.

وعرض عليها النبي (ﷺ) أن يحررها، ويتزوجها كما صنع بغيرها من نسائه.

ولكن مارية أصرت على أن تعيش جارية له! (قال ابن سعد في الطبقات الكبرى بأن حاطب بن أبي بلتعة عرض عليها الإسلام هي وأختها سيرين فأسلمتا جزء ٨ ص١٥٣)، ولقـد أصـرت علـى أن تـشعر بأنها مملوكة الرقبة، ليبقى لها ذلها، وانكسار قلبها، كما علمتها الرهبنة المسيحية!.

ورضي الرسول بما رضيت به مارية، لم يكرهها على أمر لا تقبله!.

لقـد اختـار المقـوقس للنبي (ﷺ) فتـاة ذكيـة، قـرأت واطلعـت، وحفظـت تعـاليم الكنيسة القبطية، وتطبعت بها.

وسافرت إلى الحجاز في ثوب راهبة، لتدل قومها على حقيقة ذلك الرجل العربي الذي يزعم أنه نبي جاء بعد عيسى!.

ولتعلم أهو نبي حقاً، أم هو ملك من ملوك الدنيا؟

ولا يتيسر لها العلم بذلك إلا إذا عاشت معه في بيته، تحت سقفه.

ولم يجد "المقوقس" عنده خيراً من هذه الفتاة يرسلها إلى محمد لتـأتي لـه بـالخبر اليقين عن أحواله، وصدق نبوته.

وأرسل معها أختها، ونفراً من قومها ليعيشوا على مقربة منها، لتطمئن إليهم.

وسافرت "مارية" وشعرت بعظيم مهمتها التي انتدبت من أجلها فلعل هذا مما منعهـا أن تقبـل الـزواج مـن الـنبي (ﷺ)؛ لأنهـا تعـرف أن الـزواج ربـاط مقـدس، فيـه تلتـزم الزوجة الوفاء والإخلاص لمن ارتبطت به، وليس كذلك الجارية!

ولا يزال في نفسها شيء من هذا النبي – كما ذكر المقوقس لها ذلك؛ وقد جاءت لتتعرف، وتتجسس، لا لتحب وتتزوج!

ودخلت " مارية " بيت الرسول (ﷺ) فلم تدخل قصراً، ولم تر ملكاً، كما رأت للرومان من قصور في الإسكندرية ومعابد في كل مكان.

وإنما أقامت في بيت متواضع أشد تواضعاً من صوامع الرهبان!

ورأت رسول الله يعيش في بيته عيش الكفاف، فلا ترف ولا سرف وإنما تقشف وشظف!

يأكل طعامه فوق الأرض على سفرة يفرشها من الجلد، ويقول: آكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب العبد!.

وينام على سرير مشدود بحبال من ليف، وليس في بيته إلا حفنات من تمر وشعير؛ هي زاده في هذه الحياة!

وأخذت مارية تطحن الشعير بيدها على الرحى، وشاركت رسول الله (ﷺ) في معيشته كما يحياها، وكان يعمل معها بيده، ويخدم نفسه وأهله ؛ فرأت في حياته ما كانت تقرؤه عن المسيح عيسى ابن مريم في زهده وتقشفه، وأدركت أن قومها قد خرجوا عن طريق المسيح إلى المعيشة الهانئة في الدنيا ؛ فسكنوا القصور، وادخروا الذهب والفضة واكتنزوهما وتمتعوا بشهوات الحياة كأنهم يعيشون فيها أبدا!

حتى رؤساء الكنيسة؛ أحبارهم ورهبانهم انغمسوا في تلك الشهوات؛ فهم في واد، والدعوة التي يدعون إليها الناس في واد آخر.

وكانت مارية فتاة فطنة، فسرعان ما تعلمت العربية، وسرعان ما فهمت كلام الله في قرآنه، وكلام نبيه في حديثه.

فعرفت حقيقة "عيسى ابن مريم" وأنه كلمة الله ورسوله، وهو عبد من عباد الله، خلقه الله آية للناس من غير أب بنفخة من جبريل ؛ كما خلق آدم من غير أب ولا أم!. وليس ولدا له سبحانه!

فأدركت أنها وقعت على الحق، وانشرح صدرها للإسلام، فآمنت بالله، وصدقت برسوله خاتم الأنبياء.

وسمع المقوقس وحاشيته بما انتهى إليه أمرها، فأدركوا أن محمداً هو النبي

الذي بشر به المسيح، وأن الله ناصره ومؤيده.

· ولو أنهم فتحوا قلوبهم للحق لآمنوا به واتبعوه، ولكن سلطان الدنيا غطى على مشاعرهم، وختم على قلوبهم ؛ فباعوا دينهم بدنياهم، وكانوا من الخاسرين!.

ثم أسكن النبي (ﷺ) (مارية) بعالية المدينة، بعيداً عن (عائشة) زوجته الغيور، وأقامت فيها متمتعة بعطف الرسول (ﷺ) وحبه.

قالت عائشة: " ما غرت من امرأة إلا أقل مما غرت من مارية؛ وذلك أنها كانت جميلة جعدة، فأعجب بها رسول الله (ﷺ)، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت "لحارثه بن النعمان" فكانت جارتنا.

فكان عامة النهار عندها، فجزعت، فحولها إلى العالية؛ بأقصى المدينة. وكان يذهب إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا!.

· وبعد عام من دخول الرسول (ﷺ) بها ظهر عليها علامات الحمل، ففرح الرسول بذلك فرحا شديدا!.

فلما استوفت أيام حملها، وجاءها المخاض أرسل الرسول لها أختها سيرين، و "الشفاء" أم "عبد الرحمن بن عوف" ليساعداها في الولادة.

فما هي إلا ساعة حتى جرت إليه " أم رافع " بالبشرى، قائلة:

"لقد ولدت مارية ولداً"!.

فحمد النبي (ﷺ) ربه وشكره؛ فقد رزقه الولد على كبر سن، وسماه "إبراهيم": باسم أبي الأنبياء، خليل الرحمن.

ثم تصدق بوزن شعر رأسه فضة على كل مسكين.

· وفرحت المدينة كلها بمولد إبراهيم، ونودي فيها: ولد للرسول غلام !

فأولم المهاجرون والأنصار الولائم فرحين مغتبطين، واختاروا له أجود شياههم ؛ ليأخذ إبراهيم منها لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

وأدركت الغيرة "عائشة" خاصة، ونساء النبي (ﷺ) عامة؛ إذ كيف يكون للنبي (ﷺ) ولد من تلك الجارية، ولا يكون له منهن ولد؟!

وهن الحرائر، وهي الأمة! وكان النبي يبقى عند ولده، كل يوم ساعة يلاعبه

فيها ويناغيه، ويساعد أمه في حمله والعناية به، وتصلهن الأخبار فيزددن غيرة من مارية.

ولقد حمل النبي (ﷺ) إبراهيم مرة إلى (عائشة) لتراه، وتدرك مدى شبهه بالرسول، ولكن عائشة دفعته عنها من الغيرة، وقالت وهي مغضبة: "ما أراه يشبهك في شئ!": فأخذ الرسول ولده وانصرف عنها شفقة بها، وهو يستغفر لها، ويقول: "إنكن صواحب يوسف".

وأما "مارية" القبطية فحين أسلمت ودخلت في دين الله. وولدت له غلامه، وعلم بذلك أهلها- اعتزوا بمصاهرة الرسول لهم.

وسمعوا بعدله ورحمته، وأنه يوصي بهم خيرا، لأنهم أخوال ولده إبراهيم، ويقول لأصحابه: ((**إذا فتحتم مصر، فاستوصوا بالقبط خيرا؛ فإن لهم رحما ونسبا!**)). فأدرك القبط أن فتح العرب لبلادهم لا محالة واقع. وانتظروا اليوم الذي يخلصهم فيه من ذل الرومان وعسفهم!.

فلما جاء هذا اليوم في عهد "عمر بن الخطاب"؛ فتح المصريون أبواب بلادهم لجيش الإسلام، ولم يعترضوا سبيله !.

وشاع بينهم أن المسلمين أصهارهم جاءوا ليخلصوهم من ظلم الظالمين..

فأعانوهم على عدوهم، ودخلوا في دينهم!.

وكان زواج رسول الله (ﷺ) من(مارية) خيرا وبركة عليهم.

وقد عرف المسلمون لها هذه الفضيلة عند فتحهم مصر. فذهب "عبادة بن الصامت" إلى قريتها "حفن" وسأل عن بيت مارية، وأقام عليه مسجدا!.

وهكذا نرى رسول الله (ﷺ) قد صاهر اليهود والنصارى، ليبين للناس أنه لا يكره طائفة لدينها، ولا يحتقر قوما لجنسهم؛ وانه لا يستعلي على فئة من الناس، وينبذهم.

فهو الذي يقول: "الناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى".

لذلك فتح قلبه للناس جميعا، وبيته للطوائف جميعا؛ فالتقوا فيه على حب الله ورسوله (ﷺ).

* * *

الباب السادس

السيدة خديجة

أم المؤمنين رضي الله عنها

(يا نساء النبي لستن كأحد من النساء)

مقدمــــة:

الحمد لله مؤلف القلوب، ومفرج الكروب، بسوق الماء إلى الأرض الجُرُز، فيخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، أفلا يبصرون ؟

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. القائل في كتابه الكريم: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾** (الروم: ٢١).

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله القائل فيما روي عنه: **((إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه))** صل اللهم وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، الذين جعلهم الله نجوماً يهتدى بهم في الظلمات، ويسترشد بآرائهم في الشبهات، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.

وبعد: فهذه كلمة مختصرة في فضل أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد، زوج الرسول الكريم، وأول المسلمين من النساء وقد حرصت فيها على أن أقدم تعريفاً واضحاً وذكراً شاملاً لمآثرها. وشيئاً غير يسير عن حياتها، وبعض أخبارها وقصصها، وشيئاً عن مواقفها الجليلة مع الرسول العظيم.. ليعرف عنها القارئ. ما لم يكن يعرف، وليزداد علماً بما يعرف، راجياً من وراء ذلك أن تكون قدوة حسنة، وأسوة صالحة، ومثلاً أعلى لنسائنا في هذه الأيام، ولأمهاتنا في هذه الآونة الحرجة، وذلك الظرف العصيب، ليسلكن طريقها، وينهجن نهجها، وينسجن على منوالها. فهي صورة مشرفة للمرأة الكاملة، ونموذج حي للزوجة المخلصة، وقصة صادقة للبطلة المجاهدة.

فقد ملأت حياة النبي قبل البعثة. وملكت عليه قلبه ولبه قبل الرسالة، وبذلت له مالها ونفسها قبل الإسلام.

فلما جاء الإسلام لم تركن إلى الراحة، ولم تخلد إلى السكينة، ولم ترغب في

الدعة والهدوء. بل لقد قامت بواجبها خير قيام، وأدت ما يجب عليها للرسول كزوجة، والدين كمسلمة ولبيتها وأولادها كأم حنون، وصدق رسول الله، إذ يقول فيها: ((**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسيا بنت مزاحم ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد**)) (رواه البخاري).... وكفاها بذلك تعظيماً وتكريماً.

رحمة الله بنبيه اليتيم

كان محمد منذ أن ولد موضع رعاية الله وعنايته، ولم تتخل السماء عنه ساعة واحدة، ولم يكله الله إلى نفسه ساعة من نهار، لأن القدرة الإلهية، والإرادة السماوية سبقت له بالسعادة الأبدية فشمله فضل الله، وغمره كرمه. فتمت له النعمة، وضوعفت له الكرامة، وهيأ الله له من أمره رشداً، ويسر له من خلقه عدداً، فسعدوا بصحبته، وشرفوا برؤيته، وسادوا بخدمته، ودخلوا التاريخ من أوسع أبواب المجد والفخار، فاكتسب خاملهم شهرة ووضيعهم رفعة. وذليلهم عزة وسلطانا. وإلا فماذا كانت تكون حليمة السعدية، لو لم ترضع محمداً الرسول؟ وماذا كان يساوي بحيرة لو لم يقابل الرسول! وماذا كان يساوي عبد المطلب لو لم يكن جدّاً للنبي الكريم؟

الحق أقول: إن هؤلاء الذين شرفوا بلقاء النبي في صغره وبعد بعثته، ما كانوا ليُعرفوا في حياتهم ولا ليُذكروا في الكتب ولا ليجري اسمهم على ألسنة الخطباء والشعراء والعلماء والفقهاء، لو لم يقترن وجودهم بوجود محمد، وتتصل حبالهم بحبال النبي العظيم، وصدق صاحب الهمزية الإمام البوصيري رحمه الله إذ يقول:

وإذا سخر الإله أناساً ** لسعيد فإنهم سعداء

فهل كان يمكن أن تكون مكة على ما هي عليه الآن لو لم يولد النبي فيها وهل كان يمكن أن يكون لقريش ذلك المجد لو لم يكن الرسول منها؟ وهل كان يمكن أن تدب الحركة والعمران، والحيوية والنشاط في الجزيرة العربية. لولا حظها من وجود النبي بين ربوعها.

اللهم لا. لقد أيقظ وجود النبي العرب من سبات، وطهر الكعبة من رجس الأصنام ودنس الأوثان. بوأ مكة منزلة عالية. ومقاماً كريماً، ما كانت لتحلم به.

أو لتطمع فيه. لولا أنه كان من أهلها، فأصبحت بفضله قبلة للناس، ومنارة للأمم، وملجأ للعالمين، يقصدها الناس من كل مكان. ويأتونها من كل ناحية. ويحجون إليها من كل فج عميق. يبتغون فضلها. ويرجون خيرها. ويتقربون إلى الله فيها، لأنها مشرق شمس الإسلام، ومهبط وحي القرآن، ومسقط رأس محمد، وكفاها بذلك فخراً كريماً. لقد شهدت جبالها وسهولها الآيات البينات، والبراهين الساطعات، على قرب مولد النبي العربي. الذي بشر به عيسى. وأخبر به موسى، وإبراهيم. فكانت الهواتف فوق جبال مكة، والجن في ربوعها وملائكة السماء يعلنون في أنحائها بشرى مولده السعيد. وظهور نوره الجديد.

ومن أجل ذلك كله بدأت السماء تعد لاستقباله العدة، وتهيئ لمجيئه العقول والأذهان. فهيَّأت لمقدمه السبل، وذللت لمجيئه الطرق وصنعت قبل بعثته الغرائب والأعاجيب، فكان أن نجا أبوه؟ عبد الله من الذبح، وكان أن نجا هو من شر اليهود. ولكي تعده السماء إعداداً صحيحاً وتنشئه تنشئة حسنة، وتربيه تربية عالية سامية، وقوية نقية، لا يخالطها ترف الأغنياء ولا نعيم الأثرياء، ولا لهو الشباب ولا متاع الصبيان.. لكي لا يصيب فطرته شيء من هذا، نشأ يتيماً فقيراً، وشاء الله أن يفقد أباه قبل أن يولد. كما فقد أمه وهو صغير.

والعجيب في قضاء الله. أن أباه لم يترك له أخاً شقيقاً يؤنس وحدته، أو يُرافق وحشته، أو يعينه على مرارة ذلك اليتم البائس في ذلك الجو الرهيب. لقد كان في طفولته المبكرة، يسأل أمه عن أبيه كلما سمع أقرانه ورفاقه ينادون آباءهم، ويرتشفون من عطفهم كؤوس الشفقة، ورحيق الحنان، فكانت أمه تسانده تارة. وتعزيه أخرى، حتى أسرف في السؤال، وألح عليها في معرفة الحقيقة، فكان لابد أن تكاشفه بالأمر، وتطلعه على الخبر، وكان أن سافرت به إلى يثرب حيث دفن أبوه، وصممت على أن تُرِيَهُ قبر عبد الله، الذي شاء له قضاؤه المحتوم وشاءت له إرادة الله أن يدفن بيثرب قبل أن تكتحل عينه بأنوار محمد، وهو يبني صرح الإسلام عالياً، ويدير فيها مقاليد الأمور، وينفذ فيها الأحكام ويقيم الحدود.

وما كان الصبي الناشئ: والطفل الحدث، يسمع نبأ زيارته لقبر أبيه الراحل

ووالده المفقود، حتى مَنَّى نفسه الأماني العذبة، وسبح خياله الغض في فيض من الأحلام السعيدة، وتوهم أن والده هنا حيث تتجه به أمه الوفية، وجاريته بركة، وأنه سوف يفتح لرؤيته ذراعيه، وسوف يهش لنظره وجهه، ويضيء له جبينه، ويبتسم له، ثم يطبع على فمه ووجنتيه قبلة حارة، يودعها كل عطفه وبره، فلا يلبث أن ينسى كل ما لقيه في طفولته من يتم وحرمان.

ولم يطل الطريق بالطفل الحالم، ولا بأمه الحنون، لأنه كان يعيش في حلمه الوردي، ويهيم في خياله اللذيذ، وربما طوى عن الركب الكريم تعب السفر، وخفف عليهم قسوة الصحراء ذلك الحلم الجميل، الذي كان ينعم به محمد، والذي كانت تمنيه به جاريته أم أيمن، وكأنما أصرت على ألا تصدمه في شعوره، أو توقظه من حلمه، نزولا على رغبة أمه الشفوق. فلقد عملت أمه جهدها على ألا تحرمه من نعيم يتخيله، ويعيش فيه، إنه يتخيل أباه في انتظاره، وأنه إن عاجلاً أو آجلاً سوف يلقاه، وما هي إلا لحظة حتى يكون في أحضانه كما كان يرى الأطفال والصبيان، وهكذا ظل محمد اليتيم يمني نفسه بهذا اللقاء الحبيب، حتى فوجئ بضياع رجائه هباء منثوراً. فما كاد يقف أمام قبر أبيه عبد الله، حتى تجسم له اليتم، وتمثل له الحرمان، ولم ير أمامه إلا قبراً مهجوراً، عفا عليه الزمن، وأنكرته الأيام، فآلمته المفاجأة، وكأني به يحدث نفسه، أو تحدثه نفسه. أهذا كل ما كان يحلم به، ويطمع فيه؟

لقد كانت مفاجأة مذهلة، ولطمة موجهة، وخطباً أليماً، ولكن ماذا يفعل؟ لا شيء يستطيع الإنسان فعله أمام جبروت الموت، وسطوة الأقدار. اللهم إلا دموعاً ساخنة، وعبرات حارة، ربما كانت أول ما أرسله في حياته من دموع وزفرات.

وهذا كل ما كان يستطيع أن يقدمه للجثمان أبيه من الحقوق والواجبات.

الكأس الأولى

وقف محمد على قبر أبيه عبد الله، وأحس منذ اللحظة الأولى أنه أصبح يتيماً حقاً، وسمع من القبر الجواب الذي كانت تبخل عليه أمه به، خوفاً على قلبه الغض، ورحمة بشعوره الرقيق — فلما أصبح الوهم واقعاً، والخيال حقيقة، حزن لفقدان أبيه واهتزت الأرض تحت قدميه، فبكى ما شاء الله أن يبكي، وكانت هذه أول كأس

يتجرعها. ولكنها كانت حارة مُرَّة، إلا أنه راض نفسه عليها، وساعده على تناولها ذلك القلب الكبير، وهذا الوجه الصبوح، وتلك اليد الرحيمة ؛ التي تقف إلى جانبه، تشاركه خطبه، وتواسي جراحه، وتقف إلى جواره في أول ساعة يشعر فيها بأنه أصبح يتيماً، وما كان ذلك القلب، ولا كانت تلك اليد إلا أمه آمنة التي كانت تنهاه عن البكاء وهي تبكي، وتُصَبِّرُه وهي أحوج الناس إلى الصبر والعزاء— إن حظها من هذا الخطب كان فادحاً، وأن نصيبها من ذلك المصاب كان كبيراً. لأنها فقدت شريك حياتها، ورفيق صباها، وهي في مقتبل العمر وريعان الشباب، ولكنها كانت تشفق على الصبي الناشئ، وتحنو على الطفل الوليد. ولم يطل وقوف الأسرة الوفية على القبر العزيز، إلا بقدر ما يزور الحبيب الحبيب، حتى إذا سكنت نفوسهم، وجفت دموعهم ألقوا على القبر نظرة طويلة كانت هي كل زادهم ومتاعهم من زيارة ذلك الحبيب المفقود، ولكنه متاع قليل من حبيب مفارق — ثم ودعت الأسرة حبيبها بمثل الشوق الذي استقبلته به أو يزيد، وانصرف محمد عنه. وفي نفسه لوعة حارة وفي قلبه حزن أليم، وأحس بأن قدمه لا تطاوعه عن الانصراف عن قبر أبيه، فلقد تثاقلت خطاه، وكثر تلفته، وتعلقت نظراته الشاردة بقطعة غالية من تلكم الأرض البعيدة التي كان ربما يودعها وهو يائس من أن يعود إليها، أو أن يراها بعد ذلك مهما طالت الأيام أو تعددت السنون. وعلى كل حال فقد انصرف وهو يعلم أين أبوه؟ ولم يزل نظره على القبر حتى توارى عنه رسمه البالي، وأثره المهجور— ثم لم تشأ آمنة أن تعود به إلى مكة حتى يزور أخوال أبيه، فمرت به على بني النجار، ومكثت عندهم أياماً لم تطل، ولكنها كانت أياماً جميلة خففت عن نفس محمد مرارة الحزن، وحرارة المصاب.

فقد لعب الصبي فيها مع أقرانه ومع خلانه، وشارك صبيانها وأطفالها الحركة والنشاط، حتى إذا عادت إلى ثغره البسمة، وإلى نفسه السكينة وإلى قلبه المكلوم الطمأنينة والهدوء قفلت به أمه راجعة إلى مكة فودعها أخواله وأوصوها بالفتى الناشئ خيراً، وألا تحرمه من رؤية قبر أبيه وزيارته كلما شاء.

فشكرت لهم آمنة الوفية حسن ضيافتهم، ووعدتهم بذلك إن قدر الله، ثم اندفعت الأسرة الكريمة إلى جوف الصحراء تحث الخطى وتجد السير إلى مكة الحبيبة حيث يعيش الأهل، وتقيم العشيرة، وينتظرهم الأحباب والأقرباء، وكان محمد

يودع يثرب بمثل الشوق الذي كان يعده لاستقبال مكة. فلقد علق بها قلبه، وهامت بها روحه، وأصبح لترابها وثراها في نفسه مكان مرموق.. وكيف لا وهي تضم الجثمان الغالي، وتشتمل على القبر الحبيب– وظل يلاحظ يثرب، ويرقب معالمها، ويتشبث برؤية مبانيها، وأشجارها الباسقة وجبالها المرتفعة، حتى لفه المغيب، وطواها عن عينه البعد، وحجبها عنه طول المسير– وعند ذلك أخذ يفكر في مكة وما فيها، وما سوف ينتظره حول الكعبة من ذكريات عزيزة، وكم كان له فيها من ذكريات– لقد تذكر فيها يوم أن كان يداعبه جده عبد المطلب وهو جالس في جوف الكعبة، فيهش للقائه، ويرحب بقدومه، ويقدمه على جميع الأطفال والصبيان، ثم يمسح على رأسه، ويشد على يده ويربت على كتفه، ثم يدني مجلسه من فراشه، فإذا أراد أحد من أبناء عبد المطلب منعه عنه، نهاه قائلا له ولغيره من أبنائه: لا تمنعوا عني ابني هذا، فإني لأرجو أن يكون له شأن عظيم.

كانت هذه الذكريات الحبيبة، وهذه الكلمات الحلوة، تطوف برأس محمد، وتداعب خياله الحالم. وتتردّد في صدر الطفل اليتيم. حقاً لقد كانت تخالج نفسه كلمات جده، وكان يجد فيها لذة ومتاعاً، وكان يجد فيها أيضا عونا على قسوة الصحراء ومشقة الطريق، وربما وجد فيها أيضا تسلية وعزاءً عن ذلك المصاب المرير، الذي كان يحس به ويفكر فيه، وكانت الأم الحنون تشاركه صمته، وتبادله إحساسه، وتود أن لو كانت تستطيع أن تفرج عنه كربته، وتطفئ لوعته، وتزيل عن صدره وقلبه كل ما يجده من الهموم والأحزان، وكانت من حين إلى حين، تخالسه النظر، وتبادله الابتسام. وربما قصَّت عليه شيئا من ذكريات أبيه الراحل، أو ذكريات مولده العجيب، فكان يجد فى صوتها الهادئ الرزين، وفي حديثها الممتع الأخاذ، ما يؤنسه في ذلك الصمت الرهيب، وكان يستزيدها من ذلك الحديث العذب، ومن الذكريات الخالدة، التي تهتز نفسه لذكرها، ويبتهج صدره بسماعها، وكانت جاريته أم أيمن ربما شاركتها في سرد هذه الذكريات، وربما أعانتها على كثرتها وقد تُذكِّرُها بما نسيته منها، وكان ذلك يزيد محمداً تعلقا بهذه الذكريات، ويجعله يطلب المزيد، ومازال الركب الكريم يجد الخطى، ويحث المسير، يحدوه الشوق إلى مكة ويجذبه الحنين إلى ربوعها، حتى أصبح على مقربة منها وكان الأهل والأقارب يرقبون

مجيئهم ويتوقعون قدومهم بين عشية وأخرى، وكان محمد لا ينفك يكلم أمه عما يجده من حرارة الشوق، وما يحس به من روعة اللقاء، فكانت تخبره أنها تجد في نفسها أضعاف ما يجده من لذة، وتحلم أكثر مما يحلم به من سرور وهناء، وأنها تشعر بشوق عبد المطلب إلى حفيده، وتحس بقلقه عليه، وأنها تعلم من حبه له، وشغفه به ما يجعلها تسرع في طريقها لكي يطمئن على محمد الذي كان لا يطيق بعده، ولا يصبر على فراقه، لأنه كان يرى في ملامحه، ويبصر في قسمات وجهه صورة أبيه، ولكن هل تصفو لمحمد الأيام؟ وهل يمهل القدر؟ وهل ينعم بفرحة اللقاء كما كان يحلم؟ وهل يصل الركب إلى مكة كما كان يرجو ويريد؟ كلا والله.. لأن الأنبياء أشد الناس بلاء وأرضاهم بمواقع القضاء، وقد أراد الله أن يصنع محمداً على عينه، وأن يصهر روحه بالبلاء، ويمحص قلبه بالقضاء. حتى يشب على حبه، ويسعى لقربه، ويطيل الوقوف على بابه، وليكون بعد ذلك كله قدوة طيبة للناس. وأسوة صالحة للخَلْق، ومثلا أعلى ينهج عليه أهل الأرض أجمعين، إذ ما كاد الركب يقترب من مكة، حتى شعرت آمنة بشيء من المرض فظنه الصبي الوديع شيئا من تعب السفر الذي لابد لكل من يسلك الصحراء أن يحس به، ولكن راعه أنه كل يوم في ازدياد فأخذ يهون عليها الأمر، ويخفف عنها ما تجد في نفسها من ألم وما تشعر به من تعب وإعياء، وما كان يدري محمد أن القدر في هذه اللحظات كان يعد أمه للقاء الله وأن تلك النظرات التي يلقيها على وجهها ربما كانت آخر ما يلقيها على وجهها من نظرات.

فاجعة أليمة

لم تكد تجف عين محمد الوديع من البكاء على قبر أبيه، ولم تكد تطيب نفسه مما دهاها وألم بها من اليتم المبكر، حتى جرعه القدر كأساً أخرى، كانت أمَرَّ من أختها وأدهى من سابقتها، ذلك الخطب الفاجع، وهذا المصاب الأليم، وهو موت آمنة التي كان يعتبرها محمد خلفاً من أبيه، والتي كان يعقد عليها كل آماله في الحياة.

لقد رأى فيها يوم وقوفه على قبر أبيه شخصية البطل، وعزيمة الشجاع، كما رأى فيها حنان الأم، وعون الصاحب، وأنس الصديق، فعقد عليها آماله، وربط بوجودها وجوده، وتمنى أن تكون له خلفاً من أبيه.

وبينما كان جرحه لا يزال يقطر دماً، وكانت دموعه لا تزال تتردد في عيونه،

وما كادت تُضَمِّدُ هذه الجراح، وتَجِدُّ في تجفيف هاتيك الدموع، إذ شكت آمنة وجعاً ألم بها، فرجف قلبه المكلوم، وارتاعت نفسه الحزينة، واضطرب جسمه الصغير.

بالله !! أفي الصحراء القاحلة؟ وفي طرقها الوعرة؟ وفي غربتها القاصية تمرض آمنة؟ وليس بجانبها حبيب ولا قريب إلا تلك الجارية الساذجة، وذلك الطفل البريء، الذي لا يعلم من أمور الحياة شيئاً، ولا يحسن من شئون الدنيا قليلاً ولا كثيراً.

لقد كان المرض يشتد، والوجع يزيد، ومحمد ينظر إلى الأم الحبيبة في دَهْشَة وذهول، وهو يرى عودها يذبل، ووجهها يشحب، وعَرَقُها يتصبب، ونبضها يضعف، وصوتها يغيب.. ثم يحاول أن يعمل لها شيئاً أو يقدم لإنقاذها شيئاً فلا يستطيع.. لقد أوشكت أن تفارق الحياة بعد أن أنهكها المرض، وأقعدتها العلة، وتمكن من جسمها الداء، وسرى فيها سريان النار المشتعلة في الهشيم المنفوش حتى هد كيانها، وأخمد أنفاسها وأطفأ ابتسامتها، وألزمها الفراش، بعد ما كانت ملء سمع الدنيا وبصرها، وبعد أن أدت إلى الدنيا أعظم أمانة، وأكبر رسالة وأوسع رحمة أنزلتها السماء إلى الناس.

لم تكن آمنة الطاهرة تدري وهي تودع الحياة أنها قد حملت إليها خير رسول إلى أكرم أمة بأعظم دين وأفضل كتاب، ولم تكن تدري أن التاريخ سوف يسجل اسمها بين صفحاته بمداد الفخر، وبحروف من نور.

لقد كانت تلقى على وجه حبيبها ووحيدها النظرة الأخيرة، وأنفاسها تتردد في صدرها، وكلماتها تختلج بين شفتيها، ومحمد الضعيف الذي هزه اليتم، وأعجزته الصحراء فانكب على صدر الحبيبة الغالية، يحاول أن يسمع منها شيئاً فلا يستطيع، وكأنما كان يحاول أن يدفع عنها الموت لو استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولكن هيهات هيهات، إن الموت لا يقدر على دفعه أحد مهما كان من القوة، ولا يستطيع أن يرده إنسان مهما كان من السطوة والجبروت.

ولم يطل المرض بالسيدة آمنة إلا لساعات قليلة، ثم ودعت محمداً إلى الأبد، ولقيت ربها بارة طاهرة، وكان على الصبي أن يقضي من حقها ما وجب عليه، فتحامل على نفسه، وساعدته جاريته المخلصة على مواراة الجثمان الكريم في مكان يقال له (الأبواء) على بعد ثمانية عشر كيلو متر من مكة المكرمة.

ولم يفت محمداً أن يبلل كفنها بدمعه الساخن، وأن يروي قبرها ببكائه الحار، فكانت جاريته أم أيمن تهون عليه مرارة الفاجعة وألم المصاب.

ولكن أنّى للتسلية أن تأخذ طريقها إلى قلب الصبي اليتيم. لقد شعر من أول يوم أنه غريب عن الدنيا، وأنه فريد وحيد لا سند له فيها ولا معين، وأين السند؟ وأين المعين؟ بعد ما فقد أمه وأباه في وقت كان أحوج ما يكون إلى المساعد والمعين فيه؟

لقد أوجع قلبه وآلم نفسه ذلك المشهد الوجيع الذي رأى فيه الموت وهو يخطف أمه ويأخذها من بين يديه، ثم يخلفه بائساً حزيناً. بل لقد ظل هذا المشهد عالقاً بذهنه، وماثلا في نفسه حتى بعد أن كان نبيّاً يأتيه الوحي من عند الله. فلقد ثبت أنه كان يأتي مع بعض أصحابه إلى زيارة قبر أمه، ثم يجلس في رحبه الفسيح، فيستغفر لها، ويترحم عليها، حتى إذا هاجت به الذكرى ورجع به التاريخ إلى الوراء، انفجرت عينه باكية، فلا يزال يبكي ويبكي معه أصحابه حتى تسكن نفسه، ويهدأ قلبه، ويشتفي صدره من حرارة الوجد، وشدة الحنين إلى تلك الأم الرحيمة، التي قضت نحبها في طليعة حياتها وأول شبابها قبل أن تقضي وطرها من تلكم الدار، ولا ينصرف عنها حتى يرحمه الناس، ومهما يكن من شيء فقد أصبح محمد يتيماً كامل اليتم. ولم تكن له في هذه الدنيا بعد أمه إلا جاريته الأمينة، فلقد صحبته في رفق إلى مكة، ودخلت على جده الوقور عبد المطلب، الذي ما كاد يعلم بهذا النبأ حتى سال دمعه الغزير رحمة بمحمد، وما أصاب محمداً.

لقد كان الجد الوديع يتوقع أن يعود محمد من سفره هذا طيب النفس، راضي القلب، هادئ البال.. فإذا به يعود حزيناً مهموماً وصدره ضيق بهذه الحياة أكثر مما كان، وعلى كل حال فمحمد لا يزال يجد في الحياة من يهبه قلبه ويوقف عليه عطفه، ويخصه بمزيد من الشفقة والحنان.

لقد نشطت همة جده، وتضاعف حنينه إليه، وتزايدت شفقته عليه، فكان لمحمد أما بعد أمه، وكان له أباً بعد أبيه، فلزمه كظله، فكان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا ومحمد إلى جانبه حتى حسده أعمامه على ذلك، وكان كثيراً ما يرى من الآيات والإرهاصات ما يجعله يعتقد بأن القدر يعد محمداً لأمر كبير، ونبأ خطير، وربما رأى الرؤية المبشرة بعلو شأنه، وبزوغ نجمه، وربما أخبره العارفون بالكتب

السابقة عن أوصاف النبي المنتظر وعلامات الرسول المرتقب، فيعتقد أنها لا تخطئ محمداً، وأنها تنطبق على حفيده كل الانطباق، وعبد المطلب لا ينسى أبداً يوم أن سافر إلى اليمن في وفد من قريش لتهنئة سيف بن ذي يزن بعودة ملكه إليه فأخبره (سيف بن ذي يزن) بسر عظيم، وخبر جسيم، وقال له كل ما ذكرته الكتب السابقة في صفات النبي العربي، حتى أحس عبد المطلب أنه جد النبي الأمي، الذي سيختاره الله خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، ثم أوصاه به خيراً، فعاد جده إلى مكة فرحاً مسروراً فضاعف من الرعاية به، وبالغ في الحنان عليه، حتى أنست نفس محمد إليه، واطمأن قلبه بأن الله قد منحه أباً باراً. ورزقه قلباً رحيماً، فهامت روحه بحبه، وتعلق قلبه به، وأخذ ينسى شيئاً فشيئاً ما أصيب به من اليتم والحرمان، وكاد الجرح أن يندمل، وكادت العلة أن تبرأ وتطيب لولا أن القدر فجعه بعبد المطلب بعد أمه بعامين، ونال موته من نفس محمد كل منال، وأخذ من قلبه كل مأخذ. فبكى على جده بكاء أبكى معه كل الناس. حتى رثي الجمع المشيع لجنازة جده لمحمد المسكين، وكأنما مات في هذا اليوم المشهود آمنة بنت وهب وعبد الله والدا الرسول.

كيف واجه اليتيم الحياة

لقد تتابعت على محمد الأحداث، وحلت عليه المحن، وتوالت عليه الخطوب، وأيقظ موت جده في قلبه ما كان قد اندمل من جروح، وما كان قد نسيه من الهموم والأحزان، وبدأ يشعر بحرارة اليتم، ومرارة الوحدة، وقسوة الأحداث.

وأخذ الناس منذ أن مات جده يثبتون أعينهم عليه، ويبالغون النظر إليه، ويتبادلون فيما بينهم حديث بكائه يوم أن مات جده الرحيم.

فقد لفت يومها أنظار الناس إليه، وكان منهم من يبكي إشفاقاً عليه ورحمة به، وتعجباً من قضاء الله فيه، ولم يفت عبد المطلب في ساعة موته وهو يكابد سكرات الموت، ويتجرع كأسه، ويعاني النزع الأخير، ويودع الدنيا إلى أبد الآبدين. لم يفته أن يوصي أكبر أولاده، وأحب أبنائه إليه بحفيده اليتيم، فكان آخر كلامه، والموت يتردد في صدره أن قال لأبي طالب: ليكن محمد وديعتي عندك، ووصيتي إليك، فلتضمه إلى بيتك، ولتجعله مع أولادك ؛ ولتكفله في رحمة وشفقة، ورفق ولين.. ولم يمت الشيخ الراحل حتى كان أبو طالب قد تسلم محمداً منه ليكفله ويرعاه، ويسبغ

عليه من عطفه وحنانه ما يحبب إليه الحياة، ويرد إلى وجهه الابتسامة المشرقة، وإلى نفسه وقلبه الأمل الحبيب.

وأقبل الصبي على الحياة يواجه صعابها، ويصارع خطوبها، ويهاجم مشاكلها، ويمارس من أحداثها وأعبائها ما يمارس الناس: فرعى الغنم أجيراً لأهل مكة، وخاض حرب الفجار مع أعمامه، وحضر حلف الفضول، الذي عقدته قريش في دار عبد الله بن جدعان لإنصاف المظلوم، وإغاثة الغريب، ونصرة الضعيف، وإغاثة الملهوف.. ولكنه مع ذلك كله لم ينس يوم (الأبواء) يوم أن وارى أمه القبر، وغيبها في جوف الصحراء. وأهال على جسدها الطاهر، ووجهها المشرق الوضاء، الحصى والتراب، وكان ربما خلا بنفسه ساعة من ليل أو نهار، فيتذكر منظرها، ويتخيل صورتها، والموت يغتالها، ويسقيها كأس العدم والفناء، فلا يلبث أن تبكي عيناه، ويذوب قلبه، وتتقطع نفسه حزنا لذلك المشهد الأليم..

وظل الصبي في بيت عمه أبي طالب، ينعم في أحضانه بالحب الغامر والعطف الشامل، والحنان الوفير، حتى اكتمل عوده، وأينع شبابه، وازدهر صباه، وأصبح فتى الفتيان؛ وزهرة الشباب، وزينة الرجال، وملء العيون والقلوب.

وشاع حديثه على كل لسان، واحتلت أنباؤه كل مجلس، ودخل ذكر أخلاقه وأمانته، وأخبار فضله ونبله، وغرائب بره وطهره المنازل والبيوت، وذاعت مناقبه ومحامده حتى ملأت كل واد وناد، ولم يكن ذلك الخلق لغيره من شبان مكة ولا لأحد من فتيانها، أولئك الذين أغرموا باللهو، وتعلقوا باللعب، وهاموا باللذائذ والشهوات، فلا هَمَّ لهم إلا أن يشبعوا رغباتهم، ويرضوا نزواتهم، ويستجيبوا إلى داعي الهوى والشيطان، وليست الحياة في نظرهم إلا فرصة سانحة، يعملون على اقتناصها، ويجِدّون في اصطيادها، ويعملون ما وسعهم على أن يستمتعوا بها، وينغمسوا في كل ما فيها من خير ونعيم، ولم يتبين لهم الهدى والتوفيق في سلوك.

أما محمد الذي صنعه الله، وأدبه باليتم، ورباه وأعده ليكون نبيّاً رسولا، وقائداً زعيماً، وبطلاً شجاعاً فقد تَحَلّى منذ صباه، وفي ريعان شبابه، بكل مظاهر الرجولة، وصفات البطولة، وأخلاق العظماء من العقلاء والنبلاء.

ولذلك انتدبه عمه أبو طالب لأن يسافر مع التجار إلى الشام ليكتسب رزقه بنفسه،

وليحصل على قوته بشخصه، فقد بلغ مبلغ الرجال، وأصبح يناهز العشرين من عمره، وقد يزيد عليها، وفي هذا السن يسمو المجدون إلى المجد، ويجتهد الراغبون في الكمال، ومن أولَى بمحمد بالمجد والكمال المنشود.

على أن أبا طالب كان فقيراً كثير الأولاد، وكان الصبي اليتيم يشعر بذلك، ويشفق بعمه مما يلاقيه من شظف العيش، وخشونة الأيام ولذلك لم يتحرج عمه أن يفاتحه في أمر يكون له فيه السعادة والرفعة، والعزة والكرامة، والسرور والهناء.

فقد كانت مكة يومئذ تستعد لرحلة الصيف إلى الشام، لتحمل إليها كل ما في مكة من رخيص مبتذل، لكي يباع غالياً مطلوبا، ثم تحمل منها إلى مكة كل ما يغلو سعره، ويعلو قدره، ويقبل على شرائه الناس، وكان يربح من وراء ذلك الأغنياء والأثرياء، كما كان يغنم بسبب ذلك أيضا الفقراء والمقلون.

أما الأغنياء فكانوا يربحون بسبب أموالهم، فتزداد كسباً وأرباحاً، وأما الفقراء فكانت غنيمتهم من ذلك ما يبذله الأغنياء لهم من أجر كثير مكافأة لهم على جهدهم، وما لاقَوهُ في سبيل تنمية أموالهم من تعب وشقاء، وجهد وعناء.

وكان هذا السبيل هو أفضل سبيل لكسب المال، وخير وسيلة للعيش الكريم، لأنه لا يوجد في مكة طريق يكتسب منه الإنسان قوته إلا التجارة، وهو أشرف طريق عندهم آنذاك.

لذلك رأى أبو طالب أن يدفع محمداً إليه، ثقة منه في عقله، وإيماناً منه بحذقه وفطنته، واعتقاداً منه بأنه ذو همة عالية، وخلق حميد، وأن أرباب الأموال، وأصحاب الثراء لا يترددون في قبوله أجيراً عندهم، ليقوم في أموالهم عاملاً مخلصاً، وليكون لهم حارساً أميناً عليها، بل إن الكثيرين منهم سوف يفضلونه على غيره، ويقدمونه على من سواه، ومن لهم بمثل محمد في وقاره ورزانته، وجدّه وعزيمته، وما أكثر ما عرف عنه واشتهر به من سمو عن الدنايا، وترفع عن سفاسف الأمور، وقد تحين عمه فرصة سانحة، واختار مناسبة كريمة، ليفاتحه في ذلك النبأ، ويدعوه إلى ذلك الأمر، فقال له يوماً والقافلة تتهيأ للخروج إلى الشام، وتستعد للذهاب إليها: يا ابن أخي هل لي أن أكاشفك بشيء يهمني ويهمك؛ ولك فيه الكثير من الفلاح والنجاح؟ فاهتزت لكلماته نفس محمد، وأشرق وجهه، وتهلل جبينه ومحياه، وأقبل عليه يستوضحه الخبر، ويتبين منه ما

يريد أن يلقيه من أنباء، فقال العم في رفق وهدوء: يا ابن أخي، لقد علمت أني فقير لا مال لي، وأني كما قد علمت كثير الأولاد، وقد بلغني أن خديجة بنت خويلد تستأجر الرجال الأكفاء، ليعملوا لها في مالها، ويتجروا لها في ثروتها وأنها تبذل لهم من المال ما يكافئ جهدهم، ويساوي تعبهم وينسيهم كل ما لاقوه في الأسفار من تعب وعناء فهل لك أن أعرضك عليها. وأذكرك لها، فعساها أن تجعلك بين رجالها، وهي ولا شك سوف تقدر قدرك، وتعرف لك حقك، وتعطيك من الأجر أضعاف ما تعطي غيرك من الرجال. ففرح محمد بذلك أشد الفرح، ورحب بذلك كل الترحيب، ولم يكن فرح السيدة خديجة بأقل من فرحه، لقد أرسلت إليه لوقتها، فلبى الطلب، وأجاب النداء. وما هي إلا أيام حتى كانت القافلة تشق الصحراء، وتنتهب الطريق، وتجد سيرها مسرعة إلى الشام، وكان مع محمد الرشيد غلامها ميسرة، وهو الذي كان له فيما بعد أحسن الأثر، وأكبر الفضل في تعريف خديجة بما رآه من محمد أثناء الطريق من الآيات والمعجزات.

أول سفر إلى الشام

أسرع أبو طالب إلى بيت خديجة بعد أن أحس رضا ابن أخيه بذلك السفر، فعرض عليها محمداً، وما كاد اسمه يمس أذنيها ويرن في سمعها، حتى رحبت به في شوق وتكريم، قائلة لأبي طالب: والله لو كان ما جئت من أجله غريباً أو بعيداً لشفعناك فيه، فكيف وهو القريب الحبيب؟ فشكر لها أبو طالب حسن قولها، وجميل صنعها، وعاد إلى محمد فأخبره بما قالت، فسر بذلك سرور ملأ عليه جوانب نفسه.. وخرجت القافلة إلى الشام، تحمل بضاعة مكة ونفائسها، وما كادت تقلع عن أرض الحرم حتى ظهرت لمحمد الآيات العجيبة، والكرامات الغريبة التي تبشر بنبوته، وتنبئ بقرب رسالته، والتي لفتت أنظار القافلة كلها إلى الشاب اليتيم، وخصوصاً ميسرة غلام خديجة. فلقد رأى ما رآه غيره، وشاهد ما شاهده سواه من الأصحاب والرفاق لقد رأى الغمامة وهي تُظلُّ النبي، فكان لا يمشي إلا مشت معه، ولا يسكن إلا سكنت حيث كان، حتى إذا أخذت القافلة مكانها الذي اعتادت أن تنزل فيه، رأى ميسرة آية أخرى، وكرامة ثانية فقد نزلوا إلى ظل شجرة معمرة من أشجار الزيتون، وكانوا قد اعتادوا النزول تحتها، وكانت شجرة قد طال عليها العهد، حتى ذبلت أوراقها، وجفت أغصانها، وانقطعت ثمارها، ولم يبق منها إلا بقية باقية، يلجأ الناس إليها وينشدون

عندها الظل الظليل، ولينعموا بالراحة تحتها، ويتبركوا بقربها، لأنها كانت قبل ذلك منزل الأنبياء، وملتقى المرسلين فقد نزل بها عيسى، كما نزل بها من قبله موسى وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل.. وكان على مقربة من تلك الشجرة راهب نصراني، قد شارك شجرة الزيتون في عمرها المديد، وكان يرقب النازلين إليها كلما زارها ضيف أو آوى إليها نزيل– إلا أنه رأى الزيتونة تلك المرة، وقد عادت إليها الخضرة والنضرة، وتدلت منها الثمار والأزهار، فهاله الأمر، وتعجب من ذلك كثيراً وكثيراً، فسعى إلى الركب المستظل بها. وكان يعرف الكثير من رجال القافلة لأنهم كانوا يمرون به كلما توجهوا إلى الشام، وكانوا يتبادلون معه الكلام والحديث كلما نزلوا في رحابه الفسيح وخصوصا ميسرة غلام خديجة، الذي أفرده الراهب النسطوري بالقول، وخصه بالحديث، قائلاً له في دهشة وتعجب: ما بالك اليوم يا ميسرة، إن لك لشأنا غريبا لم يكن لك من قبل، فقال الغلام: وما ذاك أيها الراهب العزيز؟ فقال الراهب: لقد رأيت هذه الشجرة وقد تغير حالها من يبوس إلى خضرة، ومن جفاف إلى نضرة، ومن عقم إلى ثمر وإخصاب، فهل تعلم لذلك من سبب ؟ فقال له ميسرة: وهل تعلم أنت ؟ قال نعم، فإن معكم اليوم من لم يصحبكم قبل ذلك، فقال الغلام: نعم، معنا محمد بن عبد الله، فارتاع الراهب، واهتزت نفسه، وكأنما كان له معرفة بذلك الاسم الكريم، فقال له أرنيه، فجاءه النبي، فأطال النظر في وجهه، وأكثر التأمل في عينيه وتفرس فيه كما يفعل الطبيب بالمريض، ثم أبصر كتفه، فلما وقعت عينه على خاتم النبوة، دهشت لرؤيته نفسه، واستولت عليه الدهشة واللهفة، وجعل يقول في لوثة المجنون، ويصيح بأعلى صوته: هو والله النبي العربي والرسول المنتظر ولا شك أن الراهب لم يقل ذلك إلا بعد أن تحقق من كل ما ذكرته كتب الأولين من علامات سيد الأنبياء، وخاتم المرسلين، وكان ميسرة يسمع منه! ويعجب مما يقول، فسأله عن سر تعجبه، وسبب دهشته، فأعاد عليه القول، وقال: والله إنه لنبي هذه الأمة، وما نزل تحت هذه الشجرة المباركة في المكان الذي نزل هو فيه إلا نبي ثم ضاعف لهم الكرم وبالغ في الحفاوة والإحسان، ولم يطل المقام بالقافلة حتى ارتحلت إلى الشام، ولكنهم لم يرحلوا عن ذلك الراهب حتى وعى ميسرة منه كل ما قال، ولم يطل مقامهم أيضا بالشام كما كانوا يفعلون ذلك من قبل، لأن الناس قد أسرعوا إليهم راغبين في بضاعتهم، متلهفين على

تجارتهم، فباعوا سريعا وربحوا كثيرا، ثم قفلوا راجعين إلى مكة ومعهم من خيرات الشام وبضائعها، ما تشتهيه النفس وتلذ العين من كل غال وثمين، وجديد ونافع ومفيد وكان الجمع الذي يصاحب محمدا يموج بالفرح والمرح، ويسبح في السرور والحبور، ويهيم شوقا وشغفا، ويهتز أنسا وبهجة، ويحث السير إلى أرض الوطن، ويحدو الإبل، ويغني لها بأعذب الأناشيد والأراجيز ويمنيها بالظل والماء، ذاكرا لها الراحة والطمأنينة والسكينة والهدوء في قرب الأهل، وجوار الأحباء، فكانت تهيم شوقا إلى الوطن. وتهتز شغفا وحنينا إلى هذا اللقاء، ناسية كل ما تلقاه من الجوع المضني، وما تكابده من الظمأ الحار، في جو الصحراء، وقسوة الطريق، وكان من بين هؤلاء الركب من لا يحلم بأنس العودة ولا يتخيل بهجة ذلك اللقاء، فمن هو يا ترى ؟ إنه الفتى الصامت، الذي خلت ربوع مكة من قلب يخفق بحبه ويتمنى قربه. ويشتهي لقاءه ورؤياه.. حقا لقد خلت مكة من كل أنيس يسر بقربه، ويحزن لبعده، ويألم لفراقه.. إنه محمد الذي مات جده الرحيم ومن قبل جده ماتت أمه وأبوه فمن له فيها بعد هؤلاء يا ترى ؟ ليس له فيها ما يلهب شوقه إليها، ويزيد من حنينه إلى أرضها.. اللهم إلا أبو طالب، الذي كان يخاف عليه من الشام، ويخشى عليه سطوة اليهود، الذين كانوا يتربصون به الدوائر، ويبيتون له المكر والغدر، ويدبرون له الكيد والأذى منذ أن عرفوا علامات النبوة، وصفات الرسالة وأنه هو خاتم الأنبياء والمرسلين.. ومهما يكن من شيء فقد توالت الأنباء على مكة بقدوم تجارتها، ففرح بذلك كل فرد وسر بمجيء القافلة كل إنسان وكانت الأخبار كلها تزف نبأ الكسب الوافر، والربح العظيم، وكان الركب قد اقترب من مكة، وأصبح على مسافة يسيرة منها، فتهيأت لاستقباله وأعدت العدة ليوم قدومه، وباتت مكة كلها في نشوة حالمة. وفرحة غامرة، لقدوم تجارتها سالمة غانمة، لم تلحقها خسارة ولم يمسها سوء، ولم ينزل بها كساد ولا بوار. وما هي إلا ساعات حتى يلقى كل حبيب حبيبه وكل غائب أهله وبنيه إلا محمد فإنه وحده لا يتعجل السير، ولا يخف إلى ذلك اللقاء، وإن كان يعلم أنه قد أصاب من الكسب، وجمع من الربح لخديجة ما لم تكن تتخيله، أو لتطمع فيه. وهذا ولا شك سوف يقر عينها، ويبهج نفسها، ويجعلها تضاعف له الأجر، وتجزل له الجزاء.. وكان ميسرة قد سبقه إلى سيدته ليخبرها بأن الله قد بارك في تجارتها، وزاد في كسبها وأرباحها بما لا يخطر لها على بال، وكانت

السيدة الثرية كغيرها قلقة على مالها ، خائفة على تجارتها ، شغوفة بمعرفة أنبائها ، وما كادت تسمع من ميسرة هذه الأخبار السارة ، حتى تهلل وجهها ، وانشرح صدرها ، وعزمت على أن تكافئ محمدا لاسيما وقد حدثها غلامها بما بذله من جهد. وما لقيه من تعب وعناء ولم ينس الغلام حديث الراهب ولا خضرة الشجرة ولا تظليل الغمام. بل لم ينْسَ أن يذكر لها ما تحلى به محمد من صفات عالية ، ومكارم سامية ، وخلق رفيع ، حيث لم يخض فيما خاض فيه القوم؛ ولم يدخل فيما دخل فيه الناس ، فكان لحديثه وقع السحر على نفس خديجة فتعلق به قلبها وهامت به نفسها. وعزمت على أن تجزل له الأجر وتضاعف له العطاء.

اللقاء الأول

عاد التجار إلى مكة ، وعاد معهم محمد ؛ وكانت السيدة خديجة تنتظره فى شوق ولهفة على أحر من الجمر ، فقد بلغها أنه أصاب لها ربحا عظيما (هذا من باب بركة الرسول علما بأنه لم يسبق له التجارة). وكان ميسرة قد سبقه إليها ، وذكر لها أخباره وعن خبرته الفائقة فى أمور التجارة ومعاملة الناس ، وأنه ذو خبرة واسعة ، لم يكن يتوقعها منه ، ولم يكن يعلم أن محمدا على كل هذه الدراية فى أمور الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ، وأنه مبارك ميمون الطلعة ، مستنير الفؤاد ، عذب الحديث يأتي فى كل أحواله بالعجيب الغريب.. ولقد حدث أن أصيب بعير فى القافلة بمرض شديد حتى عجز عن السير ، وقعد عن الحركة ، فأسرع إليه ، فجاء وما كاد يمسه حتى برئ من علته ونشط من عقاله ، وعادت إليه الصحة والعافية ، والحركة والنشاط وكانت خديجة تسمع من غلامها وهى مذهولة لا تكاد تصدق أذنيها ، وكانت مستغرقة فى نشوتها ، سابحة فى أحلام حتى إذا وصل ميسرة إلى حديث الغمامة وتظليلها للنبي حتى خفق قلبها ، واهتزت نفسها ، وازداد شوقها إلى لقاء محمد العظيم ، وكان لابد لهما من هذا اللقاء– فقد استأذن له ميسرة ، فدخل عليها ، واخذ يذكر لها ما لقيه فى رحلته ، وما فعله فى سفره وما حصل عليه من ربح وكسب ، وما بذله فى سبيل ذلك من جهد وتدبير ، وكان فى أثناء حديثه كله ، لا يخلو فمه من بسمة رقيقة ولا يخلو وجهه من الإشراق والنور ، وما أن فرغ من حديثه الحلو ، وكلامه الساحر وأسلوبه الخلاب ، حتى كادت نفس خديجة قد أشربت بحبه ، وأحست بين جنباتها بشيء غريب لا عهد لقلبها

به، شيء لا يتعلق بالتجارة ولا يتصل بالربح؛ ولا يمت إلى الغنى والثراء بحال ترى ما هو ذلك الشيء؟ هل هو الحب لمحمد؟ أم الإعجاب بشخصه؟ أم السرور بمعرفته؟ والرغبة فى أن يعاود العمل لها بعد نجاحه فى سعيه الأول. وتوفيقه الكبير. ربما كان كله يدور الآن بقلب خديجة، ويتردد فى صدرها، ولكن ماذا تفعل إن كان ذلك الشيء هو الحب، هل يمكن أن يكون محمد من رجالها، وهى التى قارب سنها الأربعين؟ وهل يمكن لفتى مثل محمد فى شبابه الغض، وصباه اليافع، وعمره المبكر أن يكون زوجا لمثلها لقد كانت تجول فى رأسها الخواطر، وتتردد الأفكار، وتتجمع الأسئلة تبحث لها عن جواب فى عقلها، فلا تجد ما تريده أو تبتغيه . أخيرا وجدت السيدة خديجة الجواب المنفذ والحل السريع، فأعطت محمداً أجره مضاعفا يصحبه شيء من الشكر الحار، وكثير من التقدير العميق، والإعجاب المتزايد، وانصرف محمد من عندها ولكنه بقى ماثلاً فى قلبها، شاخصا أمام بصرها، يرن حديثه فى أذنها، ويتردد صداه فى مسامعها، ويملأ خياله فراغ صدرها، لقد أنساها منظره المال والإرباح، والتجارة والبضاعة، والدنيا وما فيها، وأصبح محمد حديث نفسها، والشغل الشاغل لقلبها، والأمل المرجو فى حياتها، فهل يمكن أن يتحقق لها هذا الأمل؟ وهل يمكن أن يتم لها ذلك الرجاء ؟ لقد آثار حديث ميسرة كوامن نفسها، وألهب عواطف قلبها، وحول الشك فى عقلها إلى يقين، والخيال إلى حقيقة، والظن الموهوم إلى واقع ملموس، لقد أقلق محمد راحة خديجة من أول لقاء، بل لقد أقض مضجعها، وأطار نومها ؛ وأسهر ليلها. فلم لا تذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وهو شيخ كبير قد تفرغ للعبادة، وعاش للتنسك ؛ وألزم نفسه الفضائل والآداب، وقراءة التوراة والإنجيل ؛ وهو مع ذلك كله مجرب حكيم، خبر الدهر. وعرك الحياة، وجرب الأيام، ولابد من أن تجد عنده جوابا على سؤالها .وشفاء لذات نفسها، ومخرجا من حيرتها، ونصيحة ترشدها إلى الطريق الأقوم، والصراط المستقيم، فأسرعت إليه، فهش وجهه لها، ورحب بها، وألقى إليها بأذنه، يسمع حديثها، ويتأمل قولها، ويصغى إلى نجواها فعرضت علية حديث ميسرة، وما قصه عليها من أنباء الرحلة مع محمد إلى الشام، وما قاله الراهب نسطورى. وخبر شجرة الزيتون، ولم يفتها أن تذكر شيئا عن حديث البعير فأحس ورقة بما فى نفسها، وأدرك فكره ما يعتلج فى صدرها، فقال لها فى رفق ولين: إذا صح ما تقولين عن

الغـلام، فإنـه نـبي هـذه الأمـة، ورسـولها المنتظـر، ففرحـت خديجـة لقولـه وزال عنهـا مـا كانـت تجـده مـن كربـة، ومـا كانـت تشعر بـه مـن عنـاء، لقـد صـادف قولـه هـوى فـى نفسها، وأكد رغبة قلبها ووافق قوله كاهن عجوز، كان قد لقيها وهـى فـى نسوة مـن قريش داخل الكعبـة، فصاح بـأعلى صوته قـائلا: يـا معشـر قـريش إنـه يوشـك أن يبعث فيكم نبي، فأيتكن استطاعت آن تكون فراشا له فلتفعل، فحصبة النساء بالحجارة وآغلظن له فى القول. إلا خديجة فإنها سكتت حياء مما يقول، ولكن وقع ذلك فى نفسها، ومنذ ذلك اليوم تعلق قلبها بذلك الخبر، فلما طابقه كلام ميسرة، وأيده قول الراهب، وأكده علم ورقة، استقر فى علقها، وثبت فى ذهنها أنه نبي هذه الأمة، وأنه لابد لـه مـن شـأن عظيم، ولكـن آيـن السبيل إليـه؟ ودون ذلـك حـواجز وعقبـات، وموانـع وسدود، إن لها أولادا يشغلها تربيتهم والقيـام عليهم فمـاذا تقـول لهم؟ ومـاذا تقـول للنـاس وقد خطبها الكثير من عظماء قومها وأشرافهم وبذلوا لها من المال ما يُبذل لمثلها. فردتهم جميعا عن بالها، وتعللت بأنها أم أيتام. ومربية أطفال، وقد سبق لها الزواج، وأخذت منه حظها. وقضت منه وطرها.

ولقد تزوجت فى شبابها من خيرة القبائل. وكان زوجها الأول (عتيك بن عائذ) من قبيلة مخزوم، كما تزوجت (بأبى هالة التميمى) وهو أيضا من قبيلة تميم والتى لا تقل عن مخزوم شرفا ومجدا، وقد ولدت لكل منهما، فكان لها من الأول هند بن عاتك. ومن الثانى أبو هالة بن هالة – فأى شيء تريده من الرجال بعد أن كبر السن وتقدم العمر، وفات الأوان؟ لقد خبرت الرجال، وعاشرت الأزواج زمنا غير قليل..

كل هذه الخواطر كانت تنازعها، وتشغل نفسها ٠ ولكن الطموح لا يفارق الإنسان مادام فى هذه الحياة، والرغبة الملحة فى التجديد المستمر وأيضا حوائج القلب التى لا يحدها سن ولا يقعد بها عمر. والتي هى منبع حركة ذلك الكون، ومصدر العمران فيه. لقد هيمن شخص محمد على قلب خديجة، وسيطر على شعورها ؛ فأقامها وأقعدها، وأيقظها وأرقدها: ولزمها فى صحوها ومنامها، فكان لابد من أن تلبى حاجة قلبها، وتستحيب لشعورها، وتخرج على كل عرف وتقليد، فلم تعيها الوسيلة، فقد حدث أن دخلت عليها صديقة غالية، اعتادت أن تبثها وتكاشفها بسرها. فوجدتها غرقى فى آفكارها، سابحة فى أحلامها. فسألتها تلك الصديقة عما يشغل بالها، ولم تكن إلا

(نفيسة بنت منية) التى حرصت كل الحرص على أن تشارك خديجة أمرها ، وأن تقف على سرها ، ولم تتحرج خديجة من أن تخبرها بشأنها. إنه محمد الذى يحف به المجد ، وتحوم حوله الآمال، وتشير إليه الكتب وتعده السماء لأن يكون نبيا رسولاً.

ولم يخف على نفيسة ما فى نفسها " فانصرفت عن مجلسها وهى تعتزم أمرا ، وتعد خطة فأخذت طريقها إلى محمد. وهو الذى لا يشكو شيئا مثلما يشكو الوحدة ، ولا يؤلمه شيء مثلما تؤلمه الوحدة والفراغ.. لقد ظفر من المال بحاجته ومن العمل ببغيته ولكنه لم يظفر من حنان الأهل، وسكينة الزواج بقليل ولا كثير، فلما جلست عنده نفيسة ، قالت له: يا محمد ما يمنعك من أن تتزوج ؟ فأجابها النبي فى بساطة وصراحة: ما عندي ما أتزوج به من المال فقالت له: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الحسب والنسب والشرف والمجد ، وللكمال والجمال ؟ فتطلعت لذلك نفسه النبيلة: وقال لها فى رفق وهدوء: ومن تكون هذه يا ترى؟ فقالت له :خديجة بنت خويلد فسكت طويلا ، ثم قال خديجة ومن لى بخديجة ؟ فقالت له: أنا لك بها— فسكت ثانية ، وكانت سكتة أفصح من كل كلام، وأوضح من كل بيان ولم يغب عن نفيسة ما وراء هذه السكتة من جواب بليغ ⋅ فعادت أدراجها إلى خديجة لتزف إليها البشرى بنيل الأمل، وتحقيق الحلم والرجاء.

زواج مبارك

لم يكن محمد يسمع من نفيسة بنت منية ، اسم خديجة ، حتى علقت نفسه بها ، وهامت روحه بذكرها ، فتخيل صورتها أمام عينيه ، واستعاد رسمها يوم أن جلست تسمع منه حديثه عن الشام، وكلامه عن التجارة وما يتعلق بها ، والطريق وما كان فيه وأخذ يحلم فى سرور بالغ، ويتخيل لقاء نفيسة بخديجة وما عسى أن تجيبها ، وهل ستقبله زوجا لها ، وهى التى ردت الكثيرين من الأغنياء ، والأثرياء الذين كانوا على أتم استعداد ليبذلوا لها ما تريد. فأين هو من هؤلاء القوم؟ إن خديجة قد بيتت أمرا ، واتخذت لنفسها قرارا ، ما أظنها ترجع عنه. أو تغير رأيها فيه.إنها تملك المال والأولاد ، فأى شيء ينقصها ؟ وأى أمل تتعلق به؟ أو تطمع فيه.. بهذه الخواطر كان محمد يحدث نفسه ، ويناجى شخصه ، وكانت نفيسة قد نجحت فى مهمتها ، ووفقت فى سفارتها ، فما كادت تخبر خديجة برأى محمد وعزمه على الزواج حتى أضاء وجهها ، وأشرق جبينها ، وتلألأت عيناها ببريق الحب والولاء ، وفاضت نفسها وقلبها بالنور والسرور ، وأخذ يلهج

لسانها بالحمد والثناء على الله، وانبسطت يداها بالبذل والعطاء، ولاسيما لصديقتها الميمونة (نفيسة بنت منية) التى تحقق على يدها الأمل الحلو، والرجاء الحبيب، ثم قامت من ساعتها، وأسرعت من فورها، فأرسلت إلى محمد أن يحضر معه أعمامه. فذهب إلى عمه أبى طالب، وهو لا يكاد يصدق نفسه، وأصغى إليه عمه وهو يذكر له خديجة.. فقال أبو طالب: خديجة !! لقد أبت الرجال، وردت عن بابها الراغبين فيها، والطالبين لها، فمن هو محمد بجانب هؤلاء ولكن محمداً أكد له أنه الواقع الذى لا يقبل الشك، والحق الذى لا جدال فيه. فقام أبو طالب، وأرسل إلى أخيه الحمزة، فجاء إليه، فأخبره بما اعتزم عليه من أمر، ثم توجه الرهط القرشى إلى منزل خديجة فوجدوها فرحة مستبشرة، ووجدوا بيتها وأهلها فى نشوة حارة من الأنس والبهجة، والسعادة والهناء، وكيف لا يكونون كذلك، وقد سار إليها من سوف تسير إليه الدنيا، ويسعى إليه العالم؛ وتهبط عليه ملائكة السماء؟ يالها من سعادة كاملة، وهناءة شاملة، وشرف مرموق لخديجة وآل خديجة، لقد حفتهم عناية الله، وشملهم فضله، وغمرهم جوده، وتبوؤا مكانهم فى صدر التاريخ، ودخلوا فى سجل الزمن مع العظماء والخالدين.. وما كاد يراهم عمها عمرو بن أسد، حتى رجب بهم. وقام لهم، وأنزلهم فى مجلسه حيث يستحقون، فلما التأم الشمل، وانعقد المجلس، وحضر ورقة بن نوفل شيخ القوم وابن عم العروس قام أبو طالب، فأثنى على محمد بما هو أهله ؛ وذكر من مناقبه ومفاخره، وعدد من مكارمه ومحامده؛ وما له من فضل وشرف على جميع العرب وبنى إسماعيل فقال:

(الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم. وزرع إسماعيل، وضئضئ (الأصل والمعدن) معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنا، وجعلنا حكاما على الناس.. ثم إن محمدا ابن أخى هذا من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا، وفضلا وعقلا، يرغب فى زواج خديجة بنت خويلد، وهو وإن كان فى المال قِلٌّ، فإن المال ظل زائل، وعرض حائل. وعارية مسترجعة.. وهو والله بعد ذلك له نبأ عظيم، وخطر جسيم، وقد خطب إليكم رغبة فيكم، وحبا فى مصاهرتكم كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقيه ذهبا، وعشرون جملا، فانكحوها إياه) فلما سمع ذلك ورقة بن نوفل قام خطيبا وقال:

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما أعددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم.. فاشهدوا علىَّ معشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على الصداق المذكور. فقال أبو طالب لقد أحببت أن يشاركك عمها فى هذا. فقال عمها عمرو بن أسد: اشهدوا علىَّ معشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد محمد بن عبد الله.. فلما فرغوا من ذلك. أوْلم عليها النبي بجزور. وعند ذلك أمرت خديجة جواريها أن يضربن الدفوف، وأن يكثرن من الرقص والغناء، ابتهاجا بذلك الزواج المبارك وسرورا بما تم فى ذلك اليوم الكريم، فقامت الجواري بواجبهن خير قيام، وقد نحرت خديجة الذبائح وأقامت الولائم، واجتمع الأغنياء والفقراء؛ فنال كل منهم حظه من الوليمة، ولم ينس محمد أمه الحبيبة في غمرة هذا الفرح، بل لقد اغرورقت عيناه بالبكاء، لولا أن يدا حانية، امتدت إليه فمسحت عنه تلك العبرة الدافقة، ولم تكن يد خديجة. ولكنها كانت يد حليمة السعدية، التي ساقتها الصدفة، وهيأتها الأقدار لتكون إلى جانب ابنها محمد فى أسعد أيامه، وأهنأ ساعاته، وكان على الزوجة العروس أن تعرف لها حقها، وتقوم بالواجب نحوها. فوهبتها السيدة خديجة خمسين رأساً من الغنم، هدية لها وتكريماً لمحمد. كما قد أتحفتها بالكثير من الثياب والعطر، وشيء غير قليل من الدراهم والدنانير. ثم ودعتها في حفاوة وإكبار. قائلة لها: لا تنسى أن تزوري هذا البيت كلما تهيأ لك أن تزوري البلد الحرام فشكرت لها حليمة جميل صنعها، وجزيل عطائها، وتذكرت هذا الموقف يوم أن جاءت بمحمد من بادية بني سعد إلى أمة آمنة، فأعطتها عطاء الأسخياء، وجادت عليها جود الكرماء، وكأنما وجدت في السيدة خديجة من العطف ما كانت تحلم به وتبغيه.

رحيق السعادة

التقى الحبيبان، واقترن الزوجان، وشعر كل منهما أنه لقي كنزاً مدفونا، وفردوساً مفقودا، وأنه وجد ضالته المنشودة.

وقد تحقق له أمله، ونال سؤله ومناه.. فغرقا في بحر السعادة، وارتشفا كأس الحب، وامتصا رحيق الهناء والصفاء، وأملى لهما الدهر، فنالا من الزمن كل ما كانا

يحلمان به، وتحقق لهما كل ما كان يصبوان إليه، ويرغبان فيه..

فأما محمد، فقد سكن إلى قلب رحيم، وآوى إلى ركن ركين، ووجد اليد التي تمسح دمعته، وبلسم جراحه وتروي قلبه الظمآن بالعطف والحنان، فاطمأن قلبه، وسكنت نفسه وهدأ باله، ووجد عند خديجة وفي رحابها ما عوضه من أمه، وأنساه مرارة الوحدة ووحشة الفقر، وقسوة الحرمان، وأما خديجة فقد وجدت في شخصية محمد الزوج المثالي، والرجل الكامل " والقدوة الحسنة لجميع الأزواج، كما وجدت في شبابه المكتمل، وصباه المزدهر، وفنونه النيرة، وعزيمته الأبية ما يملأ جوانب قلبها، وما يحيط بجوانب نفسها، ويجعلها بالمكان الذي تُحسد عليه من جميع قريناتها وأترابها من النساء، لقد كانت كل عذارى بني هاشم وأبكار قريش، وعقيلات بني عبد مناف، وسائر النساء يتمنين الفتى الأغر، ويحلمن بالغلام الوسيم، ولكن فازت به خديجة، فأية سعادة تمت لها؟.

وأي هناءة غمرتها؟ وأي سرور تنعم به وتعيش فيه ؟. لقد قدر كل منهما صاحبه قدره، وعمل على إرضائه جهده، وسعى إلى إسعاده ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فكان محمد لا يبخل على خديجة بجهده وإخلاصه، ولا يضن عليها بسعيه وجده، ولا يمن عليها بشبابه وصباه.

وكانت هي كذلك، لا تفخر عليه بمال ولا ثروة، ولا تختال عليه بتجارة ولا بضاعة، ولا تحاسبه على كسب ولا أرباح، بل لقد أطلقت يده في مالها، يتصرف فيه كما يحب، ويفعل به ما يشاء، دون مراجعة ولا حساب، ودون عد ولا تقدير.

ولقد أطلقت له العنان لينفق منه جهده، ويبذل منه وسعه ويعطي أهله منه ما يريد وإن شاء كذلك أعطى الفقراء والمساكين والضعفاء والمحتاجين، والأرامل والأيتام. وسنعرض عليك أيها القارئ الكريم مثلاً حيّاً لسماحة خديجة.

كان أبو طالب رجلاً فقيراً، ذا مروءة وسماحة وكرم وجود، وسخاء واسع، وعطاء مبذول، إلا أنه كان فقيراً كثير الأولاد، فكان وهو في شبابه يواصل ليله بنهاره، وراحته بتعبه، وإقامته بسفره، حتى يوفر لهم الرزق، ويجلب لهم القوت ويجمع لهم الكساء والغطاء، وكان أولاده يجدون كفايتهم في هذا الحين، ويحصلون على مؤونتهم، ويظفرون بالكفاف من العيش، واليسير من الضروريات، ولكن بعد ما كبر

سنه ورق جلده، ووهن عظمه وقواه، ضاق بهم ذرعا وتبرم بهم نفسا، وتعسرت به سبل الكسب، وتنكر له وجه الحياة.. فماذا يفعل بهم؟ وماذا يقدم لهم؟ لا شيء ولا يملك أن يقدم لهم شيئا حتى لو أراد ذلك، إلا أن له جميلا عند محمد، ومعروفا قد قدمه لابن أخيه يوم أن كان فقيرا معدما، ويتيما معسرا.. فهل له أن يخاطبه في أمره. لا لا.. إنه أبو طالب الذي تحمل مرارة الفقر، ووطأة العسر، وقسوة الحاجة، وإلحاح الأولاد، ومع ذلك لم يسأل أحدا من الناس شيئا، ولم يخبر بحاله إنسانا، متحليا بالصبر، ومتجملا بالعزة، حتى يحكم الله في شأنه بما يشاء.

. ولكن إلى متى يصبر؟ وإلى كم يتحمل؟ والأولاد لا يرحمون ولا يصبرون فهل يذكرهم محمد؟ وهل يعطف عليهم؟ وهل يمد يد المعونة والإحسان؟ وهل يذكر أنهم طالما قاسموه النعمة، وطالما شاطروه الثراء.

وهل هناك موطن أشد مما هم فيه؟ إنهم يعانون البؤس ويكابدون الفقر، ويتجرعون كئوس الشقاء، وقد كان محمد عند حسن ظن عمه به، فلم ينس فضله عليه، ولم يجحد جميله إليه بل لقد قام من فوره، وأسرع لوقته. وذهب إلى عمه العباس، وقد كان غنيا موسراً، كثير المال، قليل الأولاد، على عكس أبي طالب فكلمه محمد في أن يأخذ من أبناء عمه أبي طالب ابنه عقيلا، ليكون معه وسط أولاده، رفقا بأبي طالب. وأما هو فسيأخذ عليّاً فرضي العباس بذلك، وانضم عَلِيٌّ إلى بيت خديجة لينعم مع أولادها بظل ظليل، وعيشة هنيئة، دون أن تجد خديجة غضاضة لذلك أو مرارة، ودون أن تشعر زوجها بحرج أو ضيق، وهكذا عاش الزوجان في رغد من العيش، وفي جنة من الرضا، وفي بستان نضير من الصفاء والهناء، يرفرف عليهما الحب والود، وتظللهما السعادة والوفاق، وتخفق عليهما راية السلام والوئام.

دمعة ساخنة

لقد بارك الله هذا الزواج، فسعد به قلب الرسول، وطابت به نفسه، ووجد فيه من الخير والمتعة ما شرح صدره، ويسر عليه أمره، وحبب إليه الحياة. كما سعدت به أيضا السيدة خديجة، ورأت في جانب محمد عيشة رغدة، وحياة هنيئة، وحلمت بمستقبل باسم، وأمل كريم، وقد أرخى الدهر لهما عنانه ووهب الله لهما من البنين والبنات ما قرت به أعينهما، وابتهجت به أنفسهما، وزادهما سعادة على سعادة، وهناء

على هناء، فكان لهما من البنات: زينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة.. كما رزقا من البنين: عبد الله والقاسم الملقب بالطيب لأنه ولد في الإسلام، ووجد الرسول في وجه أولاده صورة مشرقة لنفسه، ورأى في أفرادهم حياة متجددة لشخصه، فهامت بهم روحه، وتعلق بهم قلبه، ووجد في قربهم الراحة المرجوة، والأمل المنشود، فأقبل عليهم يلاعب طفلهم، ويدلل صبيهم، ويربي كبيرهم على حب الفضائل ومكارم الأخلاق وكانوا بالنسبة إليه حديقة مثمرة، وجنة يانعة، وبستانا نضيراً، كان يأوى إلى ظله كلما أجهدته متاعب العيش، أو أثقلته تكاليف الحياة.. وكان يرى فيهم ألوانا كثيرة من الحب والحنان.

وظلت سعادة هذا البيت في تزايد مطرد وتجدد متصل وصفاء لا يعرف الكدر، وهناء لا يشوبه التنغيص، حتى أصيب قلب النبي وكبده بأول سهم منذ أن تم الزواج. فقد مات ولده الحبيب عبد الله، وعز عليه أن يغيب هذا النجم المتلألئ عن بيته بعد ما سطع فيه.

لقد أحيا باسمه ذكر أبيه، وكان يتمنى أن لو عاش له ذلك الغلام، فسعد بقربه، ونعم بحبه، ووجد في جواره السرور والمتاع.

ولكن قضاء الله كان غالبا، وقدره كان محتوما، فلم يعش عبد الله، ولم يتحقق للرسول ما كان يريد، وبكى الرسول لأول مرة على فلذة كبده وثمرة قلبه، وذاق لأول مرة مرارة الفراق، وشاركته البكاء زوجته الكريمة، وودعت معه الصبي الراحل والطفل الرضيع، الذي فارق الحياة وهو لا يزال زهرة غضة لم تتفتح أكمامها، ولم تنبسط أوراقها، وإن كان قد انتشر عبيرها، وملأ البيت عطرها، وتعلقت بجمالها النفوس والقلوب، وطافت بمهدها الآمال والأحلام.. فهل من سبيل إلى الصبر؟ وهل وسيلة إلى التعزية؟ وهل من خلف لعبد الله؟ أو عوض منه؟ نعم لم يمض على موته إلا أشهر قلائل حتى ظهر بين الزوجين حمل جديد فتعلقت به القلوب، وتشبثت به النفوس، وتمنى كل من الزوجين الكريمين أن لو كان ذلك الحمل غلاما — وكان أن تحقق الأمل، وتم الرجاء، وجاء خديجة الوضع والمخاض فولدت القاسم، فعادت إلى البيت الفرحة والبهجة، ودخله مرة أخرى السرور والهناء. كما عادت إلى الوجه العبوس البسمة الوضيئة، والنور الساطع، وإلى القلب الحزين البشر المتدفق، والرضا الوديع، ودب في

حياة محمد دبيب الأمل وبذر الحظ فيها بذور الرجاء، ورأى في بسمة القاسم ووجهه صورة عبد الله، فأيقن أن الله عوضه عن الابن الراحل خيراً، فأقبل عليه يوليه من عطفه، وينفحه من بره، ويروي قلبه الصغير من فيض حنانه، حتى ترعرع عوده، ونما جسمه، وأشرق وجهه، وأصبح للعين وردة، وللأنف ريحانة، وعلى اللسان أنشودة، وفي القلب العطشان والصدر المكلوم أملا ورجاء.

وكان على صدر أمه وساماً، وعلى كتفي أبيه زينة، ومع أخواته الأحباء لعبة جميلة، وفي بيتهم تحفة مسلية، وفي عقولهم سنداً متيناً ينشدون له نشيد المجد، ويدعون له دعاء السلامة، ويرجون له طول العمر ودوام البقاء فهل تم لتلك الأسرة ما تتمناه؟ وهل تحقق لها ما كانت ترغب فيه؟ وهل عاش القاسم إكراما لرسول الله، ورحمة بخديجة، ورفقا بالبنات الضعيفات؟

لا والله.. لقد بلغ القاسم العامين إلا قليلا، ثم أصابته العلة وغشيته الحمى، ونزل به كأخيه قضاء الله. فارتاع لموته قلب الرسول، واهتزت لمصابه نفسه، وأظلمت في عينه الحياة، وتداعت كل آماله، وانهارت كل أطماعه وأحلامه، وعبست في وجهه الدنيا، وغابت عنه كل فرحة وسرور، وكانت خديجة لا تقل عنه لوعة وحسرة، ولا تنقص عنه حزنا وبكاء بل ربما كانت أشد منه حزنا، وأكثر منه همّاً وأحر منه مصابا، فقد قاربت سن اليأس أو هي فيه. ومع ذلك لم يعش لمحمد منها ولد ذكر تقر به عينه وتأنس به نفسه، ويتجدد به أمله.

فكانت إذا ذكرت ذلك بكت بكاء مرّاً، ونشجت نشيجا محزناً، فإذا رأتها بناتها شاركنها البكاء، وقاسمنها الهموم والأحزان.. وكان النبي قد جاءه وحي السماء، فتثبت قلبه، وتضاعف صبره، فكان إذا رآهن ذكَّرَهُنّ بالله، وحضهن على الصبر. ووعدهن في رحمة الله العوض والجزاء.. ولاسيما خديجة التي كانت لا تنفك باكية على ابنها القاسم، فقد بلغ سن المشي غير أن رضاعه لم تكن قد كملت ومات. وقد ثبت أن النبي دخل على زوجته خديجة يوماً، وكان ذلك بعد مبعثه، فوجدها تبكي. فسألها عن سبب بكائها فقالت: يا رسول الله در لبن القاسم، تعني بذلك بقايا اللبن في ثديها، فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعه؟ فقال لها النبي: إن الله قد جعل مُرضِعًا في الجنة، تستكمل رضاعه، فقالت خديجة رضي الله عنها: لو أعلم ذلك لهون

علي، فقال لها النبي: إن شئت أسمعتك صوته في الجنة فقالت: بل أصدق الله ورسوله.

عظمة خديجة

كان أجل موقف، وأنبل مشهد تجلت فيه عظمة خديجة، وظهرت فيه شخصيتها، وبرزت فيه مواهبها، يوم أن منح الله نبيه الرسالة، ويوم أن نزل عليه الملك وجاءه الوحي من الله، وأصبحت شخصيته ملتقى السماء بالأرض، ومنبع الرحمة للناس، والهداية للعالمين.

فمنذ حداثة سن الرسول ومن أول يوم في حياته والدلائل تشير إلى أنه نبي هذه الأمة، ورسولها المصطفى. ولذلك كانت نشأته عجيبة وحياته غريبة، وأخلاقه بعيدة كل البعد عن كل ما تعارف عليه الناس، ودرج عليه الرجال والنساء من عبادة الأصنام وشرب الخمر، ولعب الميسر، والتنافس في حب الرذائل، وارتكاب المنكرات.

أما محمد، فقد لاحظته عناية الله، وتولى توجيهه القدر، وأشرفت على تنشئته السماء، فكان فعله لا يصدر إلا عن حكمة وعقل، ولا يقوم إلا بسداد وتوفيق، وكان يشجعه على سلوك الطريق السوي، واتباع الصراط المستقيم ما تحدثت به الرهبان من أنباء رسالته، وما كان يسمعه من حديث الكهنة من أنه هو النبي العربي، وما كانت تخبر به اليهود والنصارى من صفاته وعلاماته، وما كانت تهتف به الجن والشياطين في الشعاب والجبال من الأقوال والأشعار، وفوق ذلك كله ما كان يسمعه هو من تسليم الحجر عليه وتكليم الشجر له. وتعظيم الحيوان والوحوش إياه. حيث إنه كان لا يمر بشجر إلا قال له: السلام عليك يا نبي الله. ولا كان يجلس إلى حجر أو جماد إلا قال له: السلام عليك يا حبيب الله.

ومنذ أن سمع من هذه الكائنات التعظيم والتكريم، وهو مذهول مأخوذ، يفكر في أمره، ويتدبر في شأنه حتى شارف سنه الأربعين. فحبب الله إليه الخلوة وصرفه بعيداً عن الناس فكان يأخذ زاده وماءه، ثم يذهب وحده إلى غار حراء ليخلو بنفسه وليفكر في ربه، وليطلق لعقله العنان في كون الله الرحيم ولينفذ بفكره إلى عجائب ملك الله، وغرائب ملكوته وما ملأ به فضاءه، وزين به سماءه من الكواكب والنجوم، وما سخر فيها من شمس وقمر. وما أجراه من سحاب وأرسله من رياح وأنزله بعد ذلك من ماء وأمطار.

ثم يتجه بفكره إلى الأرض، وما أنبته فيها من نبات وأشجار، وما بث فيها من حيوان وإنسان، وما جعل على ظهرها من الوحوش والدواب، وما خبأه في بطنها من المعادن والجواهر والكنوز وما يسيطر على ذلك كله من حكمة وتدبير، وما يهيمن عليه من توجيه ونظام، لا يتخلف ولا يحيد.

كان ذلك الكون المحكم، وكان ذلك النظام المتقن هو الكتاب الذي قرأ محمد آياته على مهل، وتدبر كلماته في هدوء، وتبينه في تأمل وإمعان، وعلم أنه لا يمكن للأصنام التي تعبدها قريش حول الكعبة، ولا للأوثان التي يعبدونها أرباباً من دون الله أن تصنع مثل ذلك الكون العظيم، ولا يمكن لها أن تأتيَ بمثل هذا التدبير المعجز. ولا يعقل منها أن يكون لها مثل ذلك الإبداع.

إن لهذا الكون ولا شك خالقًا أعظم منها. ومبدعًا أكبر منها، وإنه لا يمكن بحال أن يُترك سكان هذا العالم في سكراتهم يعمهون وفي جهالتهم يتخبطون، وفي دنياهم يسرحون ويمرحون، دون أن يعرفوا ربهم حق معرفته. ودون أن يقدروه حق قدره، ودون أن يَخُصُّوهُ بالطاعة والعبادة، ويفردوه وحده بالإجلال والتقديس.

بهذه الأفكار الرشيدة وبهذه الخواطر السديدة، كان يناجي محمد نفسه ويخاطب عقله ويغذي شعوره وعواطفه، ويحلق بروحه وخياله وراء الأفق، ويسمو بمداركه فوق هذه المحسوسات وكان يساعده على ذلك خَلْوَته الكاملة، وعزلته الشاملة وما يجده في الغار الموحش من سكون رهيب، وكان للسيدة خديجة أكبر الفضل وأعظم الأثر في تهيئة ذلك الجو لزوجها العظيم، إذ أنها لم تشغله بحقها. ولم تطالبه بحظها، ولم تسأله الإقامة إلى جوارها، ولم تملأ وقته وقلبه بهموم العيش ومتاعب الأسرة، وسفاسف النساء. بل لقد كانت تَعُدُّ له العدة وتهيئ له الفرصة ليكون مع نفسه وربه في كل وقت وحين، وكان إذا فرغ منه الزاد عاد إليها، فكانت تزوده منه بكل ما يشاء حتى إذا صفت روحه وزكت نفسه، وشفت أحاسيسه، ورقت مشاعره وعواطفه، جاءه فضل الله ونزل عليه الملك، وهبط عليه الوحي، ولم يكد يراه حتى هاله منظره فاهتز جسمه وارتاع قلبه، وارتعدت فرائصه، ثم أسرع إلى منزله يرتجف فؤاده ويضطرب جسمه ويكاد يغمى عليه من هول ما هو فيه وما أبصره في الغار، وما سمعه من الملك وما تلقاه من القرآن والتنزيل، وأبصرت السيدة العاقلة زوجها الحبيب،

وشريك حياتها العزيز وهو يرجف من الخوف ويضطرب من الرعب فتخوفت عليه شياطين الجن، وأشباح الصحراء ووحوش الجبال، فهرولت نحوه تسأله عن نفسه وتتبين منه ما أصابه أو ألمَّ به من سوء، وما دهاه من مكروه كما كانت تظن.

لقد كان عهدها به أنه أثبت من الطود. وأرسى من الجبال الراسخات، فما الذي عرض له؟ وما الذي صده عن غاره؟ وقد كان يسكن إليه، وما الذي أخرجه من محرابه الذي كان يقيم فيه؟ ويرى في ظلمته نوراً هو أضوأ من نور الشمس، وأنساً هو أنور من أنس الحياة، ولذة لا تدانيها لذة القصور وما فيها من ولدان وحور وترف ونعيم.. لابد أن يكون الذي دهاه أكبر من ذلك كله وأعظم من ذلك كله.. فلم تلبث أن سألت محمداً عما أصابه أو ألم به، وأخرجه من جنته الفسيحة وفردوسه الرحيب فقص عليها ما أبصره وحدثها عن كل ما رآه وذكر لها أنه خائف على نفسه من تلك الرؤيا التي لا عهد له بها من قبل، لقد رأى شيئاً عظيماً سد عليه الأفق. ثم تحول في أقل من لحظة إلى ملك يتكلم بأفصح لسان، وأوضح بيان، قائلاً له: اقرأ — وكان يضمه إليه، ثم يكرر ذلك الضم — ثم قال له في الثالثة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ١ — ٥).

وكانت السيدة خديجة تسمع قوله، وهي في دهشة بالغة، وفي ذهول عميق، ولكنها أعرف الناس بمحمد، وأعلمهم بأخلاقه وسلوكه فهو الرءوف الرحيم، وهو الشفوق الكريم، وهو السمح الجواد، فلا يمكن أن يمسه الله بأذى، أو يريده بشر أو مكروه.

فقالت له في حماس وإخلاص: والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتحمل الكل، وتكسى المعدوم، وتكرم الضيف، وتصل الرحم، وتعين على نوائب الأيام، ولم تقف السيدة العظيمة عند هذا الحد. بل لقد أسرعت من فورها، وذهبت لوقتها إلى حكيم زمانه، وعالم عصره، وشيخ جيله (ورقة بن نوفل) وهو بعد ذلك كله ابن عمها، وكبير قومها، وكان قد قرأ كتب الأقدمين، وأخبار الأولين، وسمع الكثير من الرهبان والأحبار، والكهنة.

فلما دخلت عليه خديجة ومعها النبي، رحب بهما، فقصت عليه القصة، وأنبأته بما قاله رسول الله فالتفت إليه ورقة بن نوفل وقال في هدوء الشيوخ، ورزانة الحكماء، ما رأيت يا ابن أخي؟ فقص عليه النبي قصته، وأخبره بكل ما رآه وما أن فرغ النبي من

حديثه، حتى قال له ورقة: أبشر يا ابن أخي. هذا هو الملك الذي أنزله الله على موسى— ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك من مكة.

فقال الرسول ﷺ في تعجب: أو مخرجيَّ هم؟ فقال له: نعم، لم يأت نبي قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن لم يدركني الموت لأنصرك نصراً مؤزراً سيرة ابن هشام. ثم لم يلبث ورقة أن توفي، إذ لم يعش ورقة حتى تمت الرسالة لرسول الله— وعادت به السيدة خديجة، وقد امتلأ قلبها بالفرح، وفاضت نفسها بالسرور، وأشرق وجهها بالغبطة والبهجة، وعلمت صدق إحساسها وصحة فراستها، وإنها كانت على حق وصواب حينما قالت له في ثقة ويقين: والله لا يخزيك الله أبداً..

وقد أيد ورقة قولها وأكد ظنها، وبشرها بأنه نبي هذه الأمة ورسول الله إلى الناس كما قد أخبرها بذلك من قبل، فأقبلت على ربها تشكر نعمه، وتحمد فضله، وتستزيده من الأفضال والآلاء كما قد أقبلت على زوجها تهنئه بفضل الله عليه، وعظيم نعمه إليه، ثم مدت يدها إلى يده الشريفة، وبايعته على الإسلام به، فكانت أول من بايعه من النساء.

وبإسلامها تكون قد أضافت إلى مكارمها العديدة، ومفاخرها الكثيرة مكرمة أخرى، ومفخرة من أعظم المفاخر، ونالت بذلك الشرف أفضل مكانة بين نساء المسلمين.

خديجة والدين الجديد

ما كادت خديجة تسمع من ورقة أن ما نزل على محمد هو الملك الذي ينزله الله على من اصطفاهم من خلقه، واختارهم من عباده رسلاً إلى الناس، حتى أسرعت إلى الدين الجديد، ولم يكد الرسول يتلقى الأمر من الله بالرسالة حتى بادر إلى القيام بواجبه فدعا قومه إلى الإسلام، وأنذر عشيرته الأقربين، وودع السكينة والدعة، والطمأنينة والهدوء، وألقى عنه أعباء الأسرة والبيت، وهموم الأهل والأولاد، وأخذ منذ اللحظة الأولى يحمل هم الدعوة، وأثقال النبوة وكان لابد له أن يشمر عن ساعد الجد، ويلقي عنه رطوبة العيش، ويودع نعيم الحياة.. وأصغت مكة كلها لدعوته في تأمل وإمعان، فإذا هو يهاجم الأصنام، ويعيب الأوثان، ويأمر بالتوحيد، وإخلاص العبادة، والطاعة لله الواحد القهار، خالق الأصنام وصانعيها والأوثان ومبتدعيها، ولم تقبل قريش دعوته، ولم تستجب لرسالته، وبالتالي لم ترض أن تُعاب آلهتها، أو تسفه أحلامها

ولم يرض محمد أن يوادعهم، أو يتخلى عن الدعوة إلى الله، وقامت الحرب بين الطرفين، بين دين يدعو إلى الحق ويأمر بالعدل ويحض على الهداية والرشاد، وبين جاهلية تقدس الأصنام، وتؤله الأحجار، وتعيش في ظلام الظلم والطغيان، وأخذت قريش تكيد لمحمد، وينكلون به ويبالغون في إهانته وأذاه.

وكان زعيم المعاندين ورأس المعارضين والمكذبين، عمه أبو لهب، الذي قال له في أول يوم دعا النبي فيه الناس إلى التوحيد، قائلاً لهم: (يا معشر قريش أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟).

فقالت له قريش: نعم ما جربنا عليك كذباً.

فقال لهم النبي: إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة فسكت الجميع إلا أبو لهب، فإنه قال في سخرية لاذعة، وتهكم مرير: ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك والله لا نصدقك فيما جئت به أبداً فلم يقل له الرسول شيئاً حتى نزل عليه قول الله عز وجل (سيرة ابن هشام). ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد: ١- ٥).

وكان لابد من أن تشتعل نار الحرب بين الرسول وقريش، وأن يستعر لهيب العداوة بين الحق والباطل، وبين الشرك والتوحيد وكان لابد أيضاً من أن يقف إلى جانب الحق أعوانه وأنصاره كما كان لابد من أن يقف إلى جانب الباطل أعوانه وأتباعه، ينصرونه ويتفانون فيه، وما أكثر ما كان للباطل من أنصار وأعوان وما أكثر ما كان له من عدة وعتاد، لقد وقفت قريش كلها إلى جانب الشرك تحميه من سطوة الحق، وتنصره على الدين الجديد، وتؤيده بكل ما لديها من قوة، وتظاهر بكل وسيلة، وتمده بالذخيرة والسلاح، وتغذيه بالظلم والجور، والطغيان والاستبداد، فكانوا يتفننون في أذى الرسول، ويحرصون على تعذيبه، والنيل من شرفه وكرامته، والإكثار من معارضته وتحديه، وكان نصيبه من الأذى لا يقل عن نصيب أصحابه الذين آمنوا به واتبعوه، وكان الرسول يتألم لنفسه، كما كان يتألم للضعفاء من أصحابه وأتباعه المضطهدين، فكان لذلك كله تتقطع نفسه حسرة ولوعة، ويذوب قلبه حزناً وأسى على ما تفعله قريش من أجل أصنام جامدة، لا تنفع ولا تضر، وأحجار لا تبدئ ولا تعيد، وكثيراً ما ضاق صدر الرسول بحماقتهم وسفههم وجهلهم وضلالهم، وغفلتهم عن طريق

الرشد، وبعدهم عن سبيل الهداية والنور وكان لا يعود إلى بيته إلا محطم النفس، مجروح القلب، ثائر العواطف والشعور، بل كثيراً ما كان يعود إلى منزله، عبوس الوجه، مقطب الجبين، يائساً من أن يستجيب هؤلاء الكفار إلى الإسلام، وكيف يطمع في ذلك، وهم الذين يقفون له بالمرصاد، ويحاربونه في كل واد وناد، يكذبون قرآنه، ويجادلون برهانه، ويدحضون حجته، وينكرون آياته، ويختلقون على نبي الإسلام الأباطيل والمفتريات.. فكانت السيدة خديجة حين تراه كئيباً أو مهموماً، حتى تسرع إليه بحديثها الحلو، وكلامها العذب، وحنانها الفياض، فلا يمضي قليل من الوقت، حتى تعود البسمة إلى فمه، والإشراق إلى وجهه، والطلاقة إلى محياه، ثم تمتلئ نفسه بالأمل، وقلبه بالرجاء فيعود إلى جهاد القوم، ويرجع إلى لقاء المشركين. وكانت لكلماتها الساحرة، وعباراتها المشجعة وأسلوبها الرصين في تسليته وتعزيته أجمل الأثر في شد عزمه، وأطيب الوقع في نفسه فكانت تصبره على المكاره، وتثبته على الحق، وتدفعه إلى مواصلة الجهاد والكفاح.

وكان موقفها بجانب الرسول، لا يقل عن موقف أبي طالب، فبقدر ما كان يحميه أبو طالب في الخارج من أذى المشركين كانت السيدة خديجة تروح عن قلبه الهموم وتُذهب عن صدره الأحزان، بما لها من كياسة وفطنة، وبما وهبها الله من رفق ولين.. على أنها رضي الله عنها، لم تسلم من أذى الكفار ولا من شرور المشركين، بل لقد نالت من عنتهم حظها، وأخذت من شرورهم نصيبها فدخلت مع المسلمين شعب أبي طالب فلقد أبى الكفار إلا أن يشعلوها حرباً حامية، لا رحمة فيها ولا سلام، فكتبوا صحيفة ظالمة، وكان مما جاء فيها: إن على قريش أن تقاطع بني هاشم فلا يبيعون لهم ولا يشترون ولا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يتقدمون إليهم أبداً بعون ولا مساعدة ولا يعرضون عليهم طعاما ولا شرابا، حتى يموتوا جوعا ويهلكوا ظمأ، أو يسلموا محمداً للقتل (المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية). ولم يتأخر أحد من عظماء مكة عن التوقيع على هذه الصحيفة. بل لقد رضي بكل ما فيها كبراؤهم، ووقع عليها سادتهم ورؤساؤهم، ثم علقوها في جوف الكعبة مبالغة في الظلم، وإسرافا في الطغيان، وحوصر بنو هاشم في الشعب وقاطعتهم قريش، حتى أجهدهم الجوع، وأهلكم الظمأ واستولى عليهم اليأس والقنوط، ولم يفت السيدة خديجة أن تشارك الرسول في محنته القاسية، وأن تقاسمه في

بلائه العظيم، فوقفت إلى جواره داخل الشعب، تجوع كما يجوع المسلمون وتقاسي ما يقاسونه من الويل والعذاب، والبؤس والشقاء، مع أنها سليلة مجد، وربيبة نعمة، ولا عهد لها بهذا الشقاء، ولا بتلك الخشونة، ولا يمكنها أن تصبر على هذا البلاء، أو تتحمل ذلك العناء، فقد قاربت الستين من عمرها أو تزيد عليها قليلاً، ولكنها أبت إلا أن تنصر محمداً النبي. وأن تؤازر زوجها الرسول مهما كان الثمن والفداء، ولقد دام الحصار ثلاث سنين فكانت في أثنائها من أقوى الناس إيمانا، وأشدهم عزماً وأكملهم يقيناً، وأقربهم إلى رضوان الله.

ومن ثم فإن السيدة خديجة، كانت من أجل نعم الله على رسوله. فلقد هيأتها له الأقدار، وأعدتها له السماء لتشاركه أعباء النبوة، وأثقال الرسالة فكم واست قلبه المحزون، وكم مسحت دمعة الهموم، وكم شدت من عزمه، وأحيت من أمله، وكم أزالت عن صدره الضيق وأكدت الرجاء، حتى بلغ الرسالة، وأدى الأمانة وأصبح له من أصحابه وأتباعه أعوان وأنصار، ولم تمت حتى كان الإسلام قد دخل كل بيت، واحتل كل قلب وجرى ذكره على كل لسان، فقد ذهبت أنواره إلى المدينة وتألقت أضواؤها في سماء الحبشة وأوشك أن تكون له دولة وسلطان، ولم يتخلف عن اتباع هديه، واعتناق مبادئه إلا أركان الكفر، وأئمة الضلال.

وفاة السيدة خديجة

عاشت السيدة خديجة عمراً حافلاً بجلائل الأعمال، وحياة مليئة بعظائم الأمور، ووقفت بنفسها ومالها إلى جانب الرسول قبل الإسلام وبعده، وأظهرت من السماحة والجود، والبذل والإنفاق، والتضحية والإيثار، ما سجله لها التاريخ، وعرفه لها النبي، وحمده لها جميع الناس، كما قد قدمت للإسلام أخلص الخدمات، وأعظم التضحيات، وأقدس أنواع الجهاد.

ففي الوقت الذي كان ينعم نساء مكة وعقيلات قريش في أحضان أزواجهن بالنعيم المقيم، والعيش الهنئ، والترف الحافل بأنواع المتع والملذات، والملئ بالشهوات والرغبات.

كانت السيدة خديجة، رضي الله عنها، ساهرة على الإسلام واقفة إلى جانبه، تبذل له الجهد، وتقدم له المال، وتساعد الرسول بالتضحية، وتغسل عن نفسه الهموم والأحزان، وما زالت تجاهد وتكابد، وتنافح وتكافح، وتتلقى من خصوم الإسلام

وأعدائه الصدمات واللطمات، تارة في زوجها وتارة في نفسها، وثالثة في بناتها، فقد طلق ابنا أبي لهب. عتبة وعتيبة بنتي الرسول، رقية وأم كلثوم، لا لشيء سوى أن أباهما نبي ينزل عليه الوحي من السماء، وكفى بذلك عيبا في نظر أبي لهب السفيه. ولقد عرف لها الرسول فضلها، وأدرك حسن صنيعها، فم يكن يذكرها إلا بخير، بل لقد عرفت لها السماء فضلها وعجلت لها أجرها، وأجزلت لها الجزاء والعطاء.

فقد روى (البخاري في صحيحه) عن أبي هريرة قال: " أتى جبريل النبي (ﷺ)، فقال له يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت ومعها إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك، فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من القصب لا صخب فيه ولا نصب " وهو قصب اللؤلؤ المجوف.

فأخبر الرسول السيدة خديجة بما قال جبريل. فقالت: الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام وكفى بذلك منزلة وتكريما، ولو أن الله مد في عمرها، وبسط لها في أجلها، لظهر من مكارمها ومحامدها أضعاف ما عرفه الناس، وسجله الخلود.. ولا أكون مغاليا إذا قلت. إنها ماتت شهيدة الإسلام، وضحية الجهاد.. إذ أنها لم تخرج من الشعب إلا وهي معتلة الجسم، منهوكة القوى، منحرفة المزاج ولم تزل بها العلة، تنال من جسمها وتهد في كيانها، وتوهن عن عزمها، حتى لقيت ربها طاهرة مطهرة، وراضية مرضية، ففي رمضان من السنة العاشرة بعد البعثة، فاضت روحها إلى بارئها، تحفها الرحمة، وتلفها المغفرة، ويصحبها الرضوان.

وكان النبي إلى جانبها، ينظر إليها وهي تجود بنفسها، وتودع بناتها، وتوصي زوجها الحبيب بهن خيرا إن قدر له أن يتزوج بغيرها من النساء، ثم تخص فاطمة بالذكر لصغرها وتحمله السلام إلى رقية، لأنها كانت يومئذ في الحبشة مع زوجها عثمان، وسمع الرسول وصيتها وألقى على وجهها السمح نظرة أخيرة ودع فيها الأم الحنون، والزوجة البارة، والشريك الحبيب، وإنما ودع بوداعها الحياة، بكل ما فيها من هناء وصفاء.. فبكى فراقها كثيراً كما بكى لبكاء فاطمة كثيرا وكثيرا، وآلمه ألا تودع رقية أمها الوداع الأخير ثم قام الرسول بدفنها في الحجون.. ولم يفته أن ينزل معها في قبرها، ثم عاد إلى البيت ليشارك بناته الثلاث لوعة الحزن، ومرارة اليتم، وحرارة الفراق.

وفاء النبي لها :

لقد حزن الرسول لموت خديجة، وبكى عليها كما لم يبك على عزيز قط.. وحق له ذلك، فقد وهبته قلبها ومالها، وأوقفت عليه عطفها وحنانها، وكانت له الأم الرءوم، والزوجة الوفية والصديق المعين.. لذلك وغير ذلك، حزن عليها ولزم البيت زمنا لا يخرج للناس، ولا يواجه المشركين ولقد بلغ من حزنه عليها أن سمى العام الذي ماتت فيه بعام الحزن، وزاد حزنه حسرة ولوعة. موت عمه أبى طالب في نفس الأسبوع الذي ماتت خديجة فيه، فضاعف موته حزن النبي، وجعله يعمل للمشركين ألف حساب وحساب. فلقد مات من كان ينصره ويحميه في الخارج، كما ماتت من كانت تعطف عليه، وتحسن إليه في الداخل، وكأني به آن ذاك يندب وحدته في مكة، ويبكي غربته فيها، ويرثي حاله وما يقاسيه من الهموم والأحزان.

ولم ينتظر الرسول طويلا حتى تزوج بالكثير من النساء وكان منهن الجميلة البكر، وكان منهن الحسيبة النسيبة، وكان منهن من كانت تفوق خديجة في سحرها وأنوثتها، ولكن الذي لا شك فيه، أن واحدة منهن جميعا لم تنزل في قلبه منزلة خديجة ولم تبلغ في نفسه مبلغها ولا عائشة التي كانت تقول: ما غرت من امرأة قط ما غرت من خديجة، مع أن النبي قد تزوجني بعد موتها بثلاث سنين إلا أنه كان يذكرها كثيرا، ويثني عليها أمامي، وقد حدث أن زارتنا هالة أخت خديجة، فلم يكد يسمع النبي صوتها وكان يشبه صوت خديجة حتى قام لها، ورحب بها وقال اللهم هالة — فلما أخذتني الغيرة من ذلك، قلت له: هل كانت إلا عجوزا شمطاء، حمراء الشدقين، أبدلك الله خيرا منها، تعني نفسها فغضب النبي (ﷺ)، وقال لها في صراحة وشجاعة: لا والله ما أبدلني الله خيرا منها. لقد آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقني الله منها ولدا ولم يرزقني من سواها. قالت عائشة فآليت على نفسي إلا أذكرها بعد اليوم بسوء. وثبت أن النبي (ﷺ)، كان إذا ذبح شاة، جعل يبعث بجزء منها إلى امرأة كانت تأتيهم أيام خديجة، وكان يقول اذهبوا بهذا إلى صديقة خديجة، فقالت له عائشة في ذلك. فقال لها: إني أحب حبيبتها.

ولقد بلغ من وفائه لها أن بكى كثيرا يوم أن رأى قلادتها في فدا أبي العاص زوج ابنتها زينب في يوم بدر، وما زال يبكي حتى رحمته الصحابة، ورقوا لبكائه،

وردوا على زينب القلادة، وأطلقوا لها زوجها بلا فداء.. وهل أتاك نبأ فتح مكة في العام الثامن للهجرة.. لقد كان مشتاقا إلى مكة، فرحا بيوم الفتح، متعطشا للنصر على المشركين وما أن أتم الله عليه نعمته حتى أسرع في لهفة وشغف إلى قبر خديجة، وأمر أصحابه أن يضربوا خيمته عند قبرها في الحجون، ليكون بجوار زوجته الوفية النقية والطاهرة الذكية، السيدة خديجة، وكأنه كان يناجي روحها في ذلك اليوم الكريم، ويبشرها بفتح الله عليه، ونصره له ومؤازرته إياه، أو كأنما كان يقول لها: إن جهادك في سبيل الإسلام قد أثمر ثمرته، وبلغ غايته، وأتم الله على رسوله والمسلمين نعمته– فهل تعلمين ؟

رحم الله خديجة المجاهدة وأسكنها فسيح جناته، وجزاها عن نبيه ودينه أحسن الأجر وأعظم الجزاء.

* * *

الباب السابع

أم المؤمنين

عائشة رضي الله عنها

ملأت السيدة خديجة على النبي المصطفى (ﷺ) كل جانب من جوانب حياته المتعددة ذات المسئوليات الجسيمة، والمهام العظيمة.. ففي جانب العقيدة كانت أول من صدقه وآمن به، وكانت أول من نظر إلى السماء ترجو أن يكون محمد نبي هذه الأمة.. وفي الجانب الأسرى كانت له نعم الزوجة المخلصة المطيعة الوفية التي تضفي على دار زوجها روح الحب والحنان.. وفي الجانب الاقتصادي كانت له نعم العون بما أتيح لها من مال هيأ له عيشة هادئة ناعمة كان يمكنه أن يستفيد منها لولا زهد القادر الذي يرجو من الله أن يكون المثل الحي في ابتغاء الآخرة وتفضيلها على متاع الدنيا وزخرفها.. وفي الجانب الإنساني كانت له نعم الصديق، الذي يؤازر صديقه وينصره، وفي الجانب الاجتماعي كانت أول من تحمل مشكلات الحياة وآلامها، تسري عنه، وتشد على يده، ولذلك رضى الرسول عن هذه الحياة الزوجية، وسعد بها كل السعادة، وعاش مع خديجة يبادلها حبا بحب، وحنانا بحنان، ويذكر لها أياديها البيضاء، ولم يفكر في أن يشرك معها غيرها حتى ودعت الدنيا ولقيت ربها راضية مرضية.

وفي نفس العام الذي لحقت فيه خديجة بالرفيق الأعلى، فإن عمه أبا طالب قد انتقل هو الآخر إلى الدار الآخرة، وهكذا مات الاثنان في عام واحد (سمى الرسول هذا العام بعام الحزن).أصبح فيه محمد أمام عدوه وجها لوجه، وتحقق ما كانت تتمناه قريش من أن تنفرد به.. فقد كان أبو طالب حصنا حصينا يحوط رسول الله بحمايته، ويدفع عنه كثيرا من الأذى والضر، وكانت خديجة سكنه الذي يأوي إليه، ويستجير به كلما نزل به الكرب والهم، وضاق صدره بما يلقى من عناء القوم، فيجد عندها الفرج والراحة والعزاء، فلما مات أبو طالب وخديجة، اجتمعت على رسول الله مصيبتان عظيمتان: فقد النصير وفقد المجير، فاشتد به الحزن، وبلغ منه كل مبلغ، حتى لقد سمي هذا العام عام الحزن.

وانطفأ النور الذي كان يملأ الكون وخيمت بعده ظلمات الأحزان، وتحولت

الحركة إلى هدوء وسكون، وسكت الصوت الذي كان يملأ المكان بهجة وأنسا، وهيمنت وحشة الصمت الرهيب.. فقد تلفت محمد (ﷺ) حوله، فإذا الدار من بعد خديجة موحشة خلاء، وإذا بمكة تبدو بعد رحيلها ليس له على أرضها مكان.. ثم تتابعت على رسول الله (ﷺ) المصائب بعد وفاة خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام.

وبلغت متاعبه أقصى مداها في عام موت خديجة الذي سمي عام الحزن، وخيل إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء، وكذبتهم أمانيهم، وظنوا أن الظفر به جد قريب، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر.

ووجدت قريش الفرصة سانحة في النيل منه، والوقوف في وجه دعوته دون خشية ممن كانت تهابه وتعمل حسابه، وكثرت مساءات قريش، واشتد عنادها، حتى اضطر إلى الخروج وحيدا إلى الطائف ينشد من ثقيف النصرة والعون والمساعدة، وعلى أمل في إسلامهم.. ولكنه عاد والألم يملأ فؤاده، فلم يجد منهم إلا شر ما يمكن أن يجده إنسان من عدو يريد الأذى والعنت، ولقد أغروا به سفهاءهم يسبونه ويصيحون به، ولجأ إلى حائط [بستان] لعتبة وشيبة ابني ربيعة محتميا مما يلقاه من أولئك السفهاء، وخلا إلى نفسه يشكو همه ويقول:

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني ! إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك.. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك" سيرة ابن هشام.

وعاد رسول الله إلى مكة أكثر حزنا، وتأملا، وأكثر تفكيرا فيما يفعله الناس، وأخذت الأيام تمضي ثقيلات الخطى، مرهقات بأعباء الجهاد، والليالي كوالح مسهدات، مشحونة بالذكريات، ومحمد (ﷺ) في وحدته بعد خديجة: أم العيال وربة البيت والشريكة في الجهاد، يخلو على نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه، ليسامر طيفها التي ملأ دنياه.

والواقع أنه كان لابد للمسلمين السابقين إلى الإسلام جميعا أن ينظروا فيما صار إليه رسولهم من ألم لا يقض مضجعه هو وحده ولكنه يقض مضاجعهم جميعا، فبدءوا في البحث عن الوسائل التي يزيلون بها عن أكتافه هذه الأحمال الثقال من التفكير والهم، والحزن، وما يمكن أن يدخلوا بها عليه من الترويح والبهجة. ولقد انتهى بهم الأمر إلى ضرورة مخاطبته في أمر الزواج لعل ذلك أن يرفه عنه، ويسري بعض ما ألم به، غير أن أحدا لم يجرؤ على أن يكون هو البادئ بهذه المخاطبة — لما للسيدة خديجة في نفسه— حتى تهيأ الأمر لإحدى السيدات المسلمات اللاتي أشفقن عليه، ورغبن في مواساته، كما أشرنا من قبل، وتقول السيدة عائشة في أمر هذه المخاطبة: لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون إلى رسول الله (ﷺ) قالت: يا رسول الله ألا تتزوج؟ قال: ومن.. قالت: إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا.. فقال: من البكر ومن الثيب ؟ قالت: أما البكر فابنة أحب الخلق إليك عائشة بنت أبي بكر، وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك، قال: فاذكريهما عليَّ، قالت: فأتيت أم رومان فقلت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير ؟ قالت: وما ذاك ؟ قلت: رسول الله (ﷺ) يذكر عائشة.. قالت انتظري فإن أبا بكر آت.. قلت: فجاء أبو بكر فذكرت له ذلك، فقال: أو تصلح له وهي ابنة أخيه ؟.. فقال رسول الله (ﷺ) أما أنا فأخوه وهو أخي وابنته تصلح لي(والمراد بالإخوة هنا: الإخوة العامة في الإسلام لا أخوة الدم). قالت: وقام أبو بكر فقالت له أم رومان إن المطعم بن عدي ذكرها على ابنه، والله ما أخلف وعدا قط، تعني أبا بكر.. قالت: وأتى أبا بكر المطعم فقال: ما تقول في أمر هذه الجارية ! فأقبل المطعم على امرأته فقال: ما تقولين ؟ قالت: فأقبلت على أبي بكر فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تصبيه (تصبيه: أي تخرجه من دينه إلى دينك، ويقال صبا يصبو إذا فعل ذلك الأمر). وتدخله في دينك الذي أنت عليه، فقال أبو بكر للمطعم: ما تقول أنت ؟ فقال إنها لتقول ما تسمع.. فقام أبو بكر — رضي الله عنه — ليس في نفسه من الوعد شيء (وذلك لما وضعته امرأة المطعم من قيود لم تكن موجودة حين وافق أبو بكر أول الأمر)، فقال لها أبو بكر: قولي لرسول الله (ﷺ) فليأت.. قالت فجاء رسول الله (ﷺ) وأخبرته بموافقة أبي بكر وزوجته أم رومان على زواجه من ابنتهما عائشة.

فأخذ رسول الله (ﷺ) يستعيد ذكرياته السابقة مع أبي بكر الصديق وزوجته أم رومان وابنتهما عائشة وأخذ يستعرض مجريات أمور عشرته معه.

فالسيدة عائشة– رضوان الله عليها– ترجع إلى أصل كريم فهي بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤي.. وأمها أم رومان بنت عمير بن عامر ، ومن بني الحارث بن غنم بن كنانة.

ويكفي أن يكون أبوها أبا بكر الصديق الذي كان من رؤساء قريش في الجاهلية ، وأهل مشاورتهم، ومحببا فيهم، وأعلم بمعالمهم، فلما جاء الإسلام آثره على سواه، ودخل فيه أكمل دخول.

ويكفي السيدة عائشة فخراً أن يكون أبوها صاحب رسول الله في طفولته وشبابه، وأول من آمن به وبرسالته من الرجال، وأكثر الناس اتصالا به، وحبا له، وسهرا عليه وبذلا في سبيل دعوته.

فالسيدة عائشة نشأت في بيت أبي بكر، ذلك الصديق الوفي الذي ينتهي إلى بني تيم، وهم قوم اشتهر رجالهم بالدماثة والأدب، واشتهر نساؤهم بالدلال وبالحظوة، وأمها هي أم رومان بنت عمير بن عامر ، من بني الحارث بن غنم من كنانة.. وأم رومان واسمها زينب أو دعد ، على خلاف فيه، كانت قد تزوجت في الجاهلية من عبد الله بن الحارث وولدت له الطفيل، فلما مات عبد الله تزوجها أبو بكر حفاظاً على بيت صديقه حيث كانت تجمعه وإياه مودة وصداقة قوية.. وولدت أم رومان لأبي بكر عائشة وعبد الرحمن، وأسلمت معه وهاجرت إلى المدينة بعد أن استقر بها مقام الرسول– صلوات الله وسلامه عليه– واختلف المؤرخون في تاريخ وفاتها، فبعضهم يرجعه إلى أخريات السنة الرابعة، وبعضهم يرجعه إلى السنة السادسة بعد الهجرة النبوية الشريفة. وكثيرون يقولون إنها عاشت إلى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، كما جاء في رواية البخاري ويروي عن النبي (ﷺ) أنه قال: " من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان".

وكان بيت الصديق على التخصيص مثلاً في هذه الآداب يحتذى به بين الحواضر العربية.

إن سيادة هذا البيت لم تكن سيادة طغيان وتعالٍ، ولكنها كانت سيادة شرف وأمانة، وكانت حصته في الجاهلية من مقام الشرف حصة الوفاء بالمغارم وضمان الديون، وعمله الأكبر في الجاهلية يدور على التجارة ومعاملة الناس ولا يدور على البأس والإكراه.

فنشأ البيت كله على الرفق والدماثة ورقة الحاشية، واشتهر بتدليل نسائه حتى قيل إنهن كن أحظى خلق الله عند أزواجهن.

نشأت عائشة في بيت أبي بكر طفلة على قدر كبير من الجمال والحلاوة، ومن الذكاء والفطنة، تحب المرح واللعب، كما يحبه الأطفال عادة في تلك السن المبكرة، ولكنهما مرح ولعب لا يلهيانها عن أشياء أخرى كانت تشغل تفكيرها، وتلفت نظرها، وتجذب سمعها.. كانت تفكر في سر هذا الأمر الذي يتحدث فيه محمد بن عبد الله إلى أبيها، وفي سر هذه الدعوة التي صدق بها أبو بكر وآمن منذ أول ما عرضها عليه، ثم آخى رسول الله عليها، وافتداه بحياته وماله وكل ما يملك من أجلها.. وكانت تفكر في سر هذه الأخوة التي ربطت بين الرجلين حتى لا يكادا يفترقان، وفي سر هذا الالتصاق الشديد أحدهما بالآخر حتى لا يكاد بيت أحدهما يخلو منهما مجتمعين في يوم من الأيام.. وكانت تفكر في سر هذه الكلمات التي تسمعها تتردد في جنبات هذه الدار أو تلك فتنزل على نفسها السكينة والأمن والسلام.

وكانت هذه هي الدار التي نشأت فيها السيدة عائشة، وكانت هذه هي البيئة التي تدرك وتعقل وهي تعيش في أحضانها، وتنمو وهي تتمتع بأحسن صفاتها.

وكانت عائشة الطفلة الصغيرة الذكية، واللماحة، ذات الصبا النضير، تنمو في بيت أبي بكر كما تنمو الزهرة الجميلة في الأرض الخصبة التربة تملأ البيت مرحاً يحببه إلى أهله، وبهجة تضفي عليهم السعادة، وأنساً يزيل عن النفوس المكدودة كل أثر للتعب.. وكان محمد يزور صديقه ليشكو له بعض الهموم التي يحملها عادة الرجال الذين لا يعيشون لأنفسهم بقدر ما يعيشون لغيرهم، والذين لا يفكرون في أنفسهم بقدر ما يفكرون فيمن يحيط بهم من قريب أو بعيد.. وكان يزوره ليخفف عنه من بعض هذه الهموم التي تؤرقه في الليل وفي النهار، وليسمع منه الكلمة الحلوة التي تنسيه ما تقوله قريش وما يلقاه منهم، والتي تشجعه على المضي في الطريق الذي يسلكه، والتي تطمئنه

على أن هذا الطريق على الحق والصواب، وانه لن يكون وحده، فمَن وراؤه عدد من المجاهدين وهبوا أنفسهم وجميع ما يملكون في سبيل دعوته، وحتى يتحقق النصر الذي وعد به عباده المخلصين.

وكان محمد أثناء كل زيارة يقوم بها لدار صديقه أبي بكر يلقى عائشة الطفلة المرحة الحلوة التي تملأ الدار عطرا نفاذا، وحيوية ونضارة فيزداد إعجابا بها، وإعزازا لها، وتقديرا لصفاتها، وإشادة بذكائها، حتى كان يوصي أمها بها خيرا، وفي ذلك تقول الدكتورة بنت الشاطئ:

وعرفها محمد (ﷺ) منذ طفولتها الباكرة، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية، وشاهدها تنمو بين عينيه، ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة وبديهة حاضرة، مع فصاحة في اللسان وشجاعة في القلب، إذا كان الذي تولى حضانتها جماعة من بني مخزوم.. وبلغ من إعزاز الرسول لها أن كان يوصي بها أمها قائلا: (من كتاب تراجم سيدات بيت النبوة).

يا أم رومان، استوصي بعائشة خيرا واحفظيني فيها.

فإذا رآها يوما غاضبة، وقف في صفها وقال لأمها في عتاب رقيق:

يا أم رومان، ألم أوصك بعائشة أن تحفظيني فيها؟.

وليس من شك في أن هذه الصلة التي جمعت بين محمد وأبي بكر، وهذه الأخوة التي ربطت أواصرها بين النبي الذي يدعو إلى عبادة الله وحده، وإلى مراقبة الخالق في السر والعلن، وإلى حسن المعاملة، وإلى أداء الواجب والإحسان إلى الضعفاء، وإلى العدل بين الناس.. وبين هذا الإنسان الكريم الذي آمن بدعوة صاحبه وصدقه فيما يقول عن ربه، ومساندته في جميع خطواته.

ليس من شك أن هذا الذكاء الوقاد، والبديهة الحاضرة السريعة الفهم والإدراك، وهذه الفصاحة في المنطق، والطلاقة في اللسان، والشجاعة في القلب التي تميزت بها عائشة. ليس من شك في أن هذا كله قد لفت أنظار النبي المصطفى إلى دار صديقه وصفية أبى بكر الصديق، ومكنه من أن يرى أهل هذا الصديق عن قرب ،وان يلم بكل ما يحيط بحياتهم.. ولذلك ما أن فوتح فى أمر الزواج، وما أن ذكر له اسم عائشة بالذات حتى اطمأن قلبه، وانشرح فؤاده.. وما أن أعلن قبول الطرفين محمد وأبى

بكر لهذه المصاهرة حتى تفاءل الصحابة والمقربون خيرا، وأملوا قرب انقشاع الغمة التى كانت تطبق على قلب الرسول منذ وفاة خديجة، واستبشروا بعودة حياته إلى طبيعتها السهلة الهينة التى يستطيع أن يمارس بها مهمته الكبرى ورسالته العظمى، وهى الدعوة إلى الدين الحق..

لم تجد قريش فى هذه المصاهرة أى شىء جديد أو غريب أو غير عادى، فما أكثر ما تحاول القبائل والعشائر أن تزيد من توثيق الروابط بينها بالمصاهرة والزواج، وهكذا، لم تدهش مكة حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين، وأوفى صديقين، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مألوفا ومتوقعا، ولم يجد فيها أى رجل من أعداء الرسول أنفسهم موضعا لمقال، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء أن يتخذ من زواج محمد (ﷺ) بعائشة مطعنا أو منفذاً للتجريح والاتهام، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه إلا سلكوه، ولو كان بهتانا وزورا.

وإلى جانب ما سبق أن قلناه، فقد كان هناك دافع آخر يكمن فى حب الرسول لأبى بكر، وإعزازه له، وتقديره لروحه العالية، وأعماله وتصرفاته والإقبال عليه، ممثلا ذلك كله فى الإيمان برسالته، وتصديقه، والوقوف إلى جانبه والدفاع عنه، ولقد أراد الرسول أن يجزيه عن هذا كله فكان أن زاد من أسباب التقرب منه، والاتصال به، وليس آدعى إلى تحقيق ذلك من زواجه من ابنة ذلك الصديق الوفى.

ومن تمام هذا الرضا أن يدنى الرسول أبا بكر منه إلى أقرب مكان يمكن أن يكون.. إنه لا يكتفي لأبى بكر أن يلقاه فى مجالسه بين المسلمين فى المسجد، وفى الصلاة، وفى غير المسجد، وغير الصلاة.. إنه يريد أن يتيح له مزيداً من الفرص للقاء الرسول، ويؤثره من بين أصحابه بأن يدخل عليه بيته متى أحب، فكان أحكم تدبير لهذا أن يتزوج رسول الله (ﷺ) بعائشة ليكون فى ذلك زيادة فى إدناء أبى بكر منه، وباب يدخل منه إلى بيت الرسول، ويجلس إليه فى خلوته مع أهله وكان فى عدم التعجيل بزواج الرسول من السيدة عائشة أن تنضج وتصبح أهلا للزواج.. وكان فى هذا مبادرة بالخير لأبى بكر وتعجيل به له..

ولعلنا نستطيع إذ نلتمس أسباب هذا الحب والتدليل الذى كان من الرسول

الكريم لزوجه عائشة أن نضيف ذلك كله أو أكثره إلى حب الرسول لأبيها أبى بكر، وجعل هذا الحب والتدليل الذى يضيفه الرسول عليها زيادة فى الحب والإيثار الذى أضفاه على أبيها.

وقد روى عن عمرو بن العاص أنه قال: قلت لرسول الله (ﷺ): ومن أحب الناس إليك؟ قال: عائشة قلت: فمن الرجال ؟ قال أبوها.

لقد كانت هناك إذا دوافع كثيرة، وأسباب مختلفة لهذا الزواج الذى كان بداية لمرحلة أخرى جديدة من مراحل حياة النبي الإنسان، الذى أكد القرآن فى أكثر من آية إنسانيته، كما أكد بشريته.

وانتقلت السيدة عائشة من بيت أبيها أبى بكر الصديق إلى دار النبوة بعد الهجرة بقليل، فاتصلت بالرسول الكريم اتصالاً مباشراً، وتراه كما هو فى صباحه ومسائه دون كلفة أو استئذان، وتراه حين ينزل عليه الوحى، وتراه حين يعود إلى نفسه وأهله بعد أن تنتهي رسالة السماء.. وكانت تسمع منه القرآن يلقنه إياها عند أول ما يتلقاه من جبريل - عليه السلام - ثم يلقنه بعد ذلك لسائر الصحابة والتابعين، وكانت تسمع منه الشرح والتفسير، وكانت تشاهده فى غدوه ورواحه كيف يتصرف مع الناس، وكيف يشاركهم أعمالهم، وكانت تحس بهجته كما تحس كآبته وألمه، وكانت تدرك مدى العنت الذى يلقاه من المشركين، ومقدار الجهد الذى يبذله فى سبيل الدعوة.. كانت ترى وتدرك وتحس كل هذا فتتمنى صادقة لو تستطيع أن تبذل من نفسها وجهدها ما يساعده على تحمل ما يلقاه.

وكانت ترجو أن يمكنها الله من أسرار هذه الدعوة وما تضمنه هذا القرآن الكريم حتى تحمل بعضا من العبء عن الرسول وتقوم بمساعدته فى التوعية الدينية اللازمة.

ولم يبخل عليها الرسول بشيء مما كانت تنزع إليه نفسها أو تتمناه، فلم ينهها عن لعب كانت تحب أن تلعبه، أو مرح تأتيه، وكان يلاعبها ويضاحكها ويجاريها فيما تقول وتفعل، ولم يكن يحرمها من مشهد من المشاهد التى تنزع إليه روح الطفولة، ولم يكن ذلك من جانب رسول الله طاعة لأمر، وتنفيذا لحكم مفروض عليه أن يؤديه، ولكن تمشيا مع طبيعته السهلة، وخلقه العظيم، ونفسه الكبيرة وبذلك ارتفع المصطفى

بما تهيأ له تمام الأريحية الإنسانية، وملاك الفطرة النبوية إلى أعلى مراتب الأنبياء، والحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما حاسنها فطرة كما حاسن كل مخلوق حي ولاسيما الضعفاء وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة فى طلب الخير والكمال، فقال غير مرة: خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله.. وقال: خيركم خيركم للنساء..

وبلغ من ذلك أنه يأوي إلى البيت، فيكون فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، وأنه استحب خدمة الزوجة فى منزلها فقال: خدمتك زوجك صدقة، وكان أكيس رجل فى معاملة أهل بيته، يشفق أن يرينه غير باسم فى وجوههن، ويزورهن جميعاً في الصباح والمساء، وإذا خلا بهن كان ألين الناس ضحكاً بساماً، كما قالت عائشة رضي الله عنها.

وعلى الرغم من هذا الحب والإعزاز اللذين غمرها بهما النبي المصطفى فإنها سرعان ما أدركت أنها لم تعد الطفلة المدللة، وإنما هى زوجة أحب خلق الله إلى الله وأكرمهم وأعظمهم جميعا، وهى شريكة ذلك المصطفى الذى اختاره ربه من بين خلقه ليبلغ رسالته، ويدعو إلى دينه، وهى رفيقة ذلك المجاهد المناضل فى سبيل الحق.. وسرعان ما راحت تعمل على أن تكون شابة تتصف بكل دراية النساء، وأن تعرف بكل ما تعرف به الحصيفات الحكيمات منهن من حصافة وحكمة، وسرعان ما أخذت نفسها بان تكون فى هذه المدرسة المحمدية التلميذ المواظب على الدرس، المتفتح الذهن لكل ما يلقى فيها ويذاع من دروس وعظات، ومن توجيه وإرشاد، توجيه وإرشاد، المدرك لكل ما يقال ويطرح للمناقشة فى أمور الدين، والعمل، والاجتماع، والسياسة، والحرب.. لقد كان الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - داعيا لدين يهدى به الله الناس ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويرشدهم إلى طريق الحق والصواب ،ويدعو إلى العمل كل مسلم ومسلمة، ويقيم مجتمعا صالحا يرتبط أفراده بأواصر الحب والإدراك والحذر، ويدعو إلى الحرب والقتال إذا لزم الأمر دفاعا عن الدين، وعن الحق والعدل فى نفس الوقت الذى يأمر فيه بالسلم إذا جنح الأعداء وآثروا هذا السلم.

كانت صغيرة السن أو طفلة - كما يحلو لذوى الهوى أن ينعتوها - لكنها منذ

وطئت قدماها بيت سيدنا محمد (ﷺ): كان الجميع يحسون وجودها، فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبي الملحقة بالمسجد.

لقد استطاعت عائشة التى أغراها حب النبي لها، وإعزازه إياها لدرجة كانت تدفعه إلى أن يقول لها: "حبك يا عائشة فى قلبي كالعروة الوثقى"

أغراها هذا الحب وهذا الإعزاز ودفعها بقوة إلى أن تقبل على هذه المدرسة بكل عقلها، وأن تستجيب لكل ما يلقى فيها بكل عواطفها وقدراتها ولقد ساعدها على ذلك ما امتازت به من ذكاء، وما تحلت به من فطنة، وما عرفت به من لباقة وسرعة خاطر، ولذلك برعت فى الأخذ عن رسول الله أمور الدين والدنيا، وكانت خير عون له على تبليغ رسالته.

فعن علمها وإلمامها بأصول الدين وفروعه ما روى حديث قط فسألنا عنه عائشة رضى الله عنها إلا وجدنا عندها منه علما "

وتقول الدكتورة بنت الشاطئ :

وعاشت لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة، وليأخذ المسلمون عنها نصف دينهم كما أمر الرسول.. (سيدات بيت النبوة د/ عائشة بنت الشاطئ).

قال الإمام الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي (ﷺ) وعلى جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل..

وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحداً أعلم بفقة ولا بطب ولا بشعر من عائشة..

عاشت عائشة لتصحح رأى الناس فى المرأة العربية، وتعرض لها صورة أصيلة حية ستظل تبهر الدنيا ما أدبر ليل أو أقبل نهار..

ولم يكن أحد من الصحابة ورواة الأحاديث يقول مثل هذه الأقوال على عواهنها، أو دون سند يؤكدها أو يزكيها، فقد سبقهم رسول الله قائلا: خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء، والحق الذى لا مراء فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام (الصديقة بنت الصديق: للأستاذ عباس محمود العقاد، صفحة ٦٦)..

ولقد ساعد عائشة على ذلك أن الوحى - منذ أن تزوجها الرسول الكريم - ما

كان ينزل إلا فى دارها، وفى شأنها نزل قرآن يتلى، وبصورتها أتى جبريل الرسول، فعنها أنها قالت: إنى لأفخر على أزوج النبي (ﷺ) بأربع: ابتكرنى ولم يبتكر امرأة غيري، ولم ينزل عليه القرآن منذ دخل على إلا في بيتي، ونزل بعذري قرآن يتلى، وأتاه جبريل فى صورتي مرتين قبل أن يملك عقدي.

وليس من شك فى أن نزول الوحى على محمد وهو فى بيتها دون بيوت غيرها من نسائه، قد دفع بعائشة أن تتجه بكل كيانها، وبكل عواطفها وحواسها إلى تفهم أسرار الرسالة العظيمة التى كُلف بها النبي.. وليس من شك فى أن ذلك ساعدها على إدراك الكثير من هدى الإسلام الذى يهتدي به أئمة الفقه، وأن تشترك فى حمل مشعل العلم الذى يستتير به المسلمون فى أمور دينهم، وفى نشر المعرفة التى تقودهم إلى النور، والواقع أن ذلك لم يكن مستغربا من عائشة التى نشأت فى دار أبى بكر، ونمت وترعرعت فى دار النبي، أما أن تفقه فى الطب، وفى علم الفلك، والتحدث عن أنساب العرب وسرد تواريخهم وعرض حوادثهم، فقد يكون بالشيء الغريب.. والحقيقة التى لا تحتمل الشك، أنها كانت تسمع المناقشات مع رسول الله فى هذه الأمور وغيرها من مسائل السياسة والحرب فتعيها وتفهمها وتدرك أسرارها، وقد سئلت ذات مرة فقيل لها:

يا أم المؤمنين: هذا القرآن تلقيته عن رسول الله، وكذلك الحلال والحرام، وهذا النسب وأحاديث الناس، سمعتها من أبيك وغيره فما بال الطب؟

أجابت عائشة: كانت الوفود تأتى رسول الله (ﷺ) فلا يزال الرجل يشكو علته، فيسأل عن دوائها، فيخبره بذلك، فحفظت ما كان يصفه لهم وفهمته.

وحسب السيدة عائشة من العلم بأصول الدين والتفقه فيه أنها روت عن النبي عليه الصلاة والسلام، أكثر من ألفى حديث فى مختلف المسائل التى تدخل فيها الأحكام الشرعية، والعظات الخلقية، والآداب النفسية، والأصول التى يرجع إليها فى الدين والعبادة.

بل حسبها أن يثبت لها عشر هذا العدد من الأحاديث النبوية لثبت لها أنها كانت تفهم وتعي وتحسن الحفظ فيما تنقله بلفظه، كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها، وإنها تحيط في فهمها وحفظها بكل ما أحاطت به تلك الأحاديث

في المعارض والمناسبات.

ومن هذه الاجتماعات التي كان الرسول الكريم يعقدها في داره، أو في دار أبي بكر، أو في المسجد الذي بنيت دوره من حوله، ومن هذه الأحاديث التي كانت تثار في تلك الاجتماعات، ومما كان يطلعها عليه زوجها الكريم الذي لم يكن يبخل عليها بعطفه وحنانه، وعلمه، وإشراكها معه في الرأي والمشورة...

لقد استطاعت السيدة عائشة من هذا كله أن تدرك الكثير من أمور هذا المجتمع الجديد، وما يراد له من خير وتقدم، وما يحيط به من اتجاهات، وما يضمره له أعداؤه من حقد وتربص..لقد كانت على علم بأمور هذا المجتمع، والتيارات المختلفة التي ثارت بعد وفاة رسول الله، والتي كانت تشتد تارة فتكاد تعصف بالمجتمع كله، وتهدأ تارة أخرى فيعود الاستقرار للنفوس القلقة.

هذا الإدراك، وهذه المعرفة بأحوال المجتمع جعلاها ترقب الأحداث عن كثب، ويعنينا أن نشير إلى هذه الأحداث التي لم تشغلها بالدرجة الكبيرة أيام أبيها، وفي زمن عمر بن الخطاب، حيث سارت الأحوال سيرتها الطبيعية، فلما كان عهد عثمان بن عفان رأت نفسها مضطرة إلي أن تشارك المسلمين النظر في أمورهم، ولقد وصف الأستاذ العقاد السيدة عائشة في هذه الفترة بقوله:

"من أهم الأشياء التي ينبغي أن تلاحظ في حياة السيدة عائشة بعد النبي (ﷺ)، أنها قضت خلافة أبي بكر وعمر وهي لا تشعر بأن مكانها في عهد النبي قد تغير، أو بأن إن أمرا من أمور السياسة العامة يدعوها إلي التعرض له راضية أو ساخطة، حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت الحال، وكان لتغيرها دلالة كبيرة وأثر بالغ (الصديقة بنت الصديق (العقاد).

ففي عهد أبي بكر كانت أمور السياسة العامة تجرى على أحكام الدين وتركن منه ومن أصحابه إلي سند ركين، وكان الخليفة أباها، وهو أول من يدعونه أمير المؤمنين.

وفي عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن، ولكنها في كلتا الحالتين لا تتشعب ولا تؤذن بانصداع، وكان عمر أهيب خليفة عرفه الإسلام،

وأحب خليفة من عائشة رضي الله عنها.. سرت صداقة بين الأبوين أبي بكر وعمر إلي بنيهما فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام في بيت النبي عليه الصلاة والسلام.. وحفظت له أجمل الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبي فقال له: إن الله هو الذي زوجكها ، وأنه سبحانه وتعالي لم يدلس بها عليك.. وتم هذا الشكر حين ولي الخلافة فرعي لها المكان الأول بين المسلمين، وخص بيت النبي بالخصائص العليا من الحفاوة والعطاء. فمضي العهدان- عهد أبي بكر وعمر- وليس في الحياة الخاصة وفي الحياة العامة ما يشعرها بتغير ، أو ينزع بها نوازع السياسة ، وما تعرض منها أو جنح إلي التخريب والتأليب.

ثم تغيرت الأمور في عهد عثمان.

ولولا هذا التغير لما عرف للسيدة عائشة نصيب في السياسة العامة بعد موت النبي، وهو الموقف الذي تحولت بها الأحوال إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة سنة علي غير سابقة له في سيرتها الأولي.

وإذا كان القرآن قد عنى عناية كبيرة بتوضيح إنسانية الرسول وبيان بشريته، فإن السيدة عائشة، وزوجته الحبيبة التي نعمت في جواره بأكثر مما يمكن أن تنعم به زوجة شابة ذكية، لم تخرج عن كونها امرأة تعرضت لكل ما يمكن أن تتعرض له المرأة.. تعرضت للمرح والكآبة ، والتدليل والزجر، والرضا والهجر، وتعرضت للمنافسة والغيرة، وأحست في قرارة نفسها بكل ما يمكن أن تحسه النساء في قرارة أنفسهن، وتعرضت للاتهام فكانت محنة الإفك التي بلبلت أفكار بيت الرسول خاصة، والمسلمين عامة حتى أنزل الله فيها قرآنا يظهر براءتها حيث يقول عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ۞ لَوْلا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۞ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ

اللَّهِ عَظِيمٌ ۞ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۞ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(النور ١١ – ١٩).

لقد تمثل في السيدة عائشة الشابة، الفقيهة، العالمة السياسية، المحدثة كل الصفات والمزايا، والقدرات التي يمكن أن تجتمع في امرأة. لقد كانت السيدة عائشة امرأة عظيمة فوق العظمة العادية.. يقول الأستاذ العقاد:

والسيدة عائشة رضي الله عنها من أمثلة الأنوثة الخالدة في جميع أقوامها، وجميع عصورها (الصديقة بنت الصديق (العقاد).

وإنها ترينا النبي في بيته فترينا الرجل الذي ارتفع بالنبوة إلى عليا المراتب الإنسانية ولكنه مع هذا هو الرجل في بيته كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء.

وفضلها على الجملة إنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه هي أو يرويه غيرها: أجل هذه هي الأنثى الخالدة في كل نسمة من نسماتها.

هذه هي الأنثى في غيرتها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في دلالها، وهذه هي الأنثى الخالدة في كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة، وحب التدليل والتصغير ، وحب التطلع والمكايدة والمناوشة، ومكاتمة الشعور، والكناية بالقول وهي قادرة على التصريح (الصديقة بنت الصديق للأستاذ/ عباس محمود العقاد، صفحة ٣٩).

ثم كانت الساعة التي لا مفر منها مهما طال العمر أو قصر، وكانت وفاتها– كما يقول كثير من المؤرخين– ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة مضين من رمضان عام ثمانية وخمسين بعد الهجرة ، ونامت نومتها الأبدية إلي جوار أمهات المؤمنين اللاتي أزال الموت ما كان بينهن من غيرة وتنافس.. وخلت الدنيا من عائشة التي كانت تغدو وتروح لتتغنى بها أنشودة في فم الزمن يسمعها ويطرب لها جيل بعد جيل حتى يأتي اليوم الحق.

* * *

الباب الثامن

وفاة الرسول (ﷺ)

الرسول في مرضه الأخير:

لقد ظل الرسول (ﷺ) يجاهد ويكافح طويلاً، منذ أن اختاره المولى عز وجل رسولاً له إلى العالمين، يبشر بخاتم الرسالات ، أي بالإسلام؟ للدين الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى للبشرية جمعاء، فهو دين كل زمان ومكان. وكان الطريق طويلاً شاقاً ، فقد جاهد الرسول في مكة ثلاث عشرة سنة ، واستمر جهاده في المدينة بعد الهجرة عشر سنوات أخرى. حتى توج الله عز وجل جهاده بالنصر المبين.

وكان الرسول (ﷺ) يجاهد في جبهات كثيرة، ويلاقي أعداء عديدين، كلهم يشتركون في عدائهم الشديد للعقيدة الرشيدة الجديدة، وإن اختلفت دوافعهم وأسلحتهم ووسائلهم. لقد كان الصراع بين الجديد المستنير والقديم الرجعي، مريراً عنيفاً، ولكن يد الله فوق أيديهم، وكلمته هي العليا.

واجه رسول الله (ﷺ) القبائل العربية، التي تمسكت بوثنيتها وجاهليتها ورجعيتها، وظل يناضلها سنوات طويلة حتى دانت بالإسلام وحضارته الزاهرة. وزالت دولة الأصنام في أكبر معاقلها ، في مكة والطائف، وواجه الرسول أيضاً القبائل اليهودية في المدينة، التي كانت من أخطر أعداء الجماعة الإسلامية، إذ لم تتبع مطلقاً مبادئ حرب المواجهة الشريفة ، بل لجأت دائماً إلى الطعن من الخلف، وإلى الدس والوقيعة والخيانة، حتى قال الرسول ﷺ: ((**شيبتني هود وأخواتها**)) (أخرجه الترمذي). كما واجه الرسول عليه الصلاة والسلام دسائس المنافقين في المدينة الذين تحالفوا غالباً مع اليهود، واستتروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا له. وواجه الرسول أيضاً عداء الدولتين الفارسية والرومانية، والتقت جيوش المسلمين بجحافل الرومان في عدة مواقع. وهكذا كان الرسول يقاتل في جبهات متعددة.

وبذل الرسول (ﷺ) جهوداً كثيرة في سبيل تحقيق وحدة المجتمع الإسلامي في المدينة، وتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين أبناء هذا المجتمع، حتى أصبح المهاجرون والأنصار إخوة في الدين والوطن والمجتمع. إلى جانب الشئون الدينية، وتبليغ الرسول

ما نزل الوحي به، وتفقيه المسلمين في شئون دينهم ودنياهم، كما اهتم الرسول بتحقيق عالمية الدين الإسلامي فكانت دعوته إلى الإسلام في خارج الجزيرة العربية.

وهكذا عاش الرسول اثنتين وعشرين سنة حفلت بالجهاد والنضال والكفاح. وشملت العناية الإلهية الرسول الكريم، فلم يمرض خلال هذه السنوات مرضاً له أهميته. فأصيب بفقد الشهية في العام السادس بعد الهجرة، كما عانى من بعض الآلام حين أكل من الشاة المسمومة التي دس اليهود السم فيها، في السنة السابعة بعد الهجرة، لقد كانت حياة الرسول المنظمة الطاهرة تكفل له تجنب الأمراض فقد اشتهر بالنظافة التامة، وبالزهد في الطعام، وسمو الروح، والبعد عن ترف الحياة ورفاهيتها. ولذا كان المرض الشديد الذي عانى الرسول الكريم منه في أواخر حياته صدمة شديدة أصابت مشاعر المسلمين، وقد لمسنا أثر هذه الصدمة، في عدم خروج الحملة العسكرية التي عهد الرسول بقيادتها إلي أسامة بن زيد.

وفي صيف المدينة القائظ، بدأ الرسول يعاني آلام المرض، فخرج ماشياً بين رجلين من أهله حتى دخل بيت السيدة عائشة رضي الله عنها، حتى تعتني به خلال مرضه.

وتذكر الروايات العربية أن الرسول (ﷺ) عانى من الأرق في الليل، ورأى أن يخرج في تلك الليلة، من ليالي الصيف، إلى خارج المدينة، فاستدعي مولاه أبا مويهبة وطلب منه أن يصحبه إلي (بقيع الغرقد) حيث مقابر المسلمين، فقد أُمر أن يستغفر لأهل هذا البقيع. وخرج الرسول مع مولاه، يشقان الظلام، والمدينة يخيم عليها السكون، حتى وصلا إلى المقابر خارج المدينة.

حتى إذا وصلا إلي وسط المقابر، قال الرسول: ((**السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولي**)) (رواه مسلم). وبعد أن صلي الرسول على الموتى قال لمولاه أبي مويهبة: "يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة". فقال أبو مويهبة: "بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة" قال محمد: "لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة".

وتصف الروايات العربية أيضاً حياة الرسول في أيامه الأخيرة فقد قدم الرسول —

كما رأينا– إلي بيت السيدة عائشة، فوجدها تعاني أيضاً صداعاً ولم تفارق الرسول رقّتُهُ وروحه الفكهة، رغم مرضه، فقال الرسول للسيدة عائشة: وما ضرك لو متّ قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك. فقالت عائشة: لكان ذلك حظ غيري، والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلي بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك.

وقدمت السيدة فاطمة لتعود أباها (ﷺ)، كان الرسول يعاملها دائماً باحترام، فكانت إذا أقبلت عليه قام لها واتجه نحوها، وأمسك يدها، ثم يقبلها ويجلسها إلي جواره. وروت السيدة عائشة قصة لقاء الرسول بفاطمة خلال مرضه. فقد رحب الرسول بمقدمها، وأجلسها إلي جانبه، وأسر لها حديثاً فبكت، ثم أسر لها حديثاً آخر فضحكت، فسألتها عائشة، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله (ﷺ). فلما انتقل الرسول إلي جوار الله، ذكرت فاطمة أنه (ﷺ) أسر لها أنه سيقبض في مرضه هذا فبكت، ثم أسر لها أنها أول أهله يلحقه فضحكت. كتاب آل بيت النبي (النشرتي).

الساعات الأخيرة

اشتد المرض علي الرسول (ﷺ)، فقال: ((**هريقوا عليَّ من سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلي الناس فأعهد إليهم**)). وخرج الرسول عاصباً رأسه إلي المسجد، حتى جلس علي المنبر، فكان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: ((**إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله**)). وفهم أبو بكر عبارة الرسول، وأدرك أن عليه الصلاة والسلام يقصد بها نفسه، فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا. فقال الرسول: ((**علي رسلك يا أبا بكر**)). ثم قال: ((**انظروا هذه الأبواب اللافظة في المسجد فسدوها إلا بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه**)). ويروي (ابن هشام) أن الرسول قال أيضاً عن أبي بكر: ((**فإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده**)).

وبعد أن استحث الرسول عليه الصلاة والسلام الناس على الانضمام إلى حملة أسامة بن زيد، وبعد أن وضح لهم أسباب اختيار أسامة للقيادة، أوصى المهاجرين بالأنصار، فقال: ((**يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون،**

وإن الأنصار علي هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتى التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم)).

ولكن خروج الرسول عليه الصلاة والسلام علي هذا النحو، زاد من وطأة المرض عليه. وحاول الرسول الخروج للصلاة بالناس في اليوم التالي، فلم تمكنه صحته من ذلك. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: ((**مروا أبا بكر فليصل بالناس**)). وكانت السيدة عائشة حريصة على أن يخرج الرسول بنفسه للصلاة بالناس، مما يبعث الطمأنينة في نفوسهم، فقالت للرسول: يا نبي الله، إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن. ولكن الرسول أصر علي أن يصلي أبو بكر بالناس.

وعللت السيدة عائشة رضي الله عنها، إصرارها على أن يقوم الرسول بالصلاة بالناس، فقالت: فوالله ما أقول ذلك إلا أني كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر، وعرفت أن الناس لا يحبون رجلاً قام مقامه أبداً، وأن الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان ، فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر.

ولما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسوله (ﷺ) خرج إلى الناس، وهم يصلون الصبح، فرفع الستر، وفتح الباب، وفرح المسلمون كثيراً وابتهجوا لرؤية الرسول، فتبسم الرسول سروراً لما رأى من هيئتهم في صلاتهم. وأراد أبو بكر أن يتأخر ليصلي الرسول بالناس، فأمره الرسول بأن يصليَ بالناس، وصلي الرسول عليه الصلاة والسلام قاعداً عن يمين أبي بكر.

وَصَفَت السيدة عائشة رضي الله عنها اللحظات الأخيرة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقالت: رجع إليَّ رسول الله (ﷺ) في ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجري، فدخل عليَّ رجل من آل أبي بكر، وفي يده سواك أخضر، فنظر رسول الله (ﷺ) إليه في يده نظراً عرفت أنه يريده. فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال نعم. فأخذته فمضغته له حتى لينته، ثم أعطيته إياه. فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وضعه، ووجدت رسول الله (ﷺ) يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة فقلت: خُيرت فاخترت والذي بعثك بالحق. وقبض رسول الله (ﷺ).

حزن رهيب

خيم علي سماء المدينة حزن رهيب ، فقد تعالت من بيت النبي أصوات بكاء نسائه، ووقع النبأ على المسلمين وقع الصاعقة، وأصبحوا في وجوم شديد، بل لم يصدق بعض المسلمين نبأ وفاة الرسول العظيم، فقد كانت الصدمة قاسية. ومنهم عمر بن الخطاب الذي قال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ﷺ) قد توفي، وإن رسول الله (ﷺ) ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله (ﷺ) كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله (ﷺ) مات .

وأقبل أبو بكر فدخل بيت عائشة، ورسول الله (ﷺ) مسجى في ناحية البيت، وعليه بردة، فكشف عن وجهه الكريم، وقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا، وأما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصبيك بعدها موتة أبداً!! ثم رد أبو بكر الغطاء، وخرج إلى الناس، فوجد عمر بن الخطاب يتحدث إليهم بمقالته التي ذكرناها، فقال له: على رِسْلِكَ يا عمر، أنصت. ثم بدأ أبو بكر يخطب في الناس، فقال: "أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت". ثم تلا أبو بكر الآية الكريمة: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾**.(آل عمران: ١٤٤).

دفن الرسول (ﷺ)

كانت الآية الكريمة التي تلاها أبو بكر هي نهاية لكل الشكوك التي ثارت، وأدرك جميع المسلمين أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اختار جوار الله عز وجل. ولكن المسلمين لا يزالون في وجومهم وحزنهم، فقد أدركوا الخسارة الكبيرة التي لحقت بالجميع. فالرسول العظيم هو النبي، ورئيس دولتهم ، وقائدهم الأعلى، وهو موضع كل الآمال والرجاء. لقد تركت وفاة الرسول فراغاً كبيراً في القلوب وفي السياسة والاجتماع، ولكن كان من الضروري أن يمضي المسلمون في الطريق الذي بدأه وخطه الرسول الكريم.

قصد فريق كبير من المهاجرين ، فيهم أُسَيْد بن حُضَيْر في بني عبد الأشهل، آبا بكر فاجتمعوا به، بينما قصد علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بيت السيدة فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام. واجتمع الأنصار، وهم يمثلون غالبية أهالي المدينة، بزعيمهم سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة. وأراد الأنصار ترشيح سعد لرئاسة الوحدة السياسية والاجتماعية التي قامت في الجزيرة العربية. وعلم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح باجتماع الأنصار، فهرعوا إلى سقيفة بني ساعدة ليعبروا عن رأي المهاجرين في اختيار خليفة رسول الله. ودار حوار طويل، وثارت مناقشات طويلة، انتهت باختيار أبي بكر خليفة للرسول عليه الصلاة والسلام.

هذا وجثمان الرسول مسجى على فراشه في غرفته، يلتف حوله أقرباؤه، ومنهم علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشقران مولى الرسول وهم الذين تولوا غسل الجثمان الطاهر " فقاموا إلى رسول الله (ﷺ)، فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص دون أيديهم".

ثم كفن الرسول عليه الصلاة والسلام في ثلاثة أثواب، ووضع على سريره، وكان ذلك في يوم الثلاثاء. واختلف المسلمون في المكان الذي يدفنون فيه الجثمان الطاهر. واقترح البعض، ومعظمهم من المهاجرين، دفن الرسول في مكة حيث مولده وحياته قبل البعثة وقبل الهجرة، ورأى البعض دفن الرسول في بيت المقدس حيث دفن الأنبياء، بينما رأى فريق ثالث أن يدفن الرسول في المدينة حيث هاجر ووجد النصرة والتأييد. وانتصر الرأي الأخير، ثم بدأ المسلمون يفكرون في مكان دفن الرسول في المدينة، فاقترح البعض دفنه في المسجد النبوي، مكان المنبر أو إلى جانبه، ولكن السيدة عائشة عارضت هذا الرأي فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: ((**قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**)) رواه البيهقي في السنن. وحسم أبو بكر الموقف فقال: "إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((**ما قُبض نبي إلا دفن حيث قبض**))". ورفع الفراش الذي توفى الرسول عليه، وحفر القبر مكانه. ثم دخل المسلمون جماعة بعد جماعة لوداع الرسول الوداع الأخير، وللصلاة عليه، وبدأوا بالرجال، الذين صلوا على الرسول بدون

إمام، ووقفوا في صمت وخشوع، وقطع أبو بكر هذا الصمت الرهيب فقال:"السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتم الله النصر لدينه، وأنه وفى بوعده، وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له". وترددت أصوات المسلمين قائلة "آمين، آمين". ثم دخل النساء، ثم الصبيان لوداع الرسول العظيم.

وتم تشييع جثمان الرسول إلى مقره الأخير، في ليلة الأربعاء، ونزل القبر علي بن أبي طالب والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى الرسول. واستمرت عائشة تقيم في بيتها بالحجرة المجاورة لحجرة القبر، فلما مات أبو بكر دفن إلى جوار الرسول، كما دفن عمر بن الخطاب إلى جواره بعد وفاته أيضا.

* * *

الباب التاسع

أربعون حديثاً في فضل أهل البيت

بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * والصلاة والسلام علي سيدنا محمد سيد المرسلين * وعلي آله وصحبه أجمعين أما بعد * فهذه أربعون حديثاً في فضل أهل بيته (ﷺ) اختصرتها من الستين التي جمعها (الحافظ السيوطي) وسماها إحياء الْمَيْت بفضائل أهل البيت بعد حذف المكرر منها وأبقيتها علي ترتيبها فهي ليس لي فيها إلا كتابتها علي الوجه المذكور وزدت عليها خاتمة ذكرت فيها عدة أحاديث في فضائل زوجاته (ﷺ) أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وعن آله وأصحابه أجمعين.

(١) أخرج (ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم والطبراني في المعجم الكبير) عن ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت هذه الآية: **﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾** (الشورى: ٢٣). قالوا يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال علي وفاطمة وولداهما.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالي: **﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾**(الشورى: ٢٣). قال: **((المودة لآل محمد))**.

(٣) أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي والحاكم عن المطلب بن ربيعة قال رسول الله (ﷺ): ((**والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي**)).

(٤) أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: ((**أُذَكِّركم الله في أهل بيتي**)).

(٥) أخرج الترمذي وحسنه والحاكم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال قال رسول الله (ﷺ): ((**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما**))

نرى وجوب الفاء في جواب الشرط [أى فلن تضلوا] ولكن لم نثبتها التزاماً بنص الحديث.

(٦) أخرج الترمذي وحسنه والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله (ﷺ): ((**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي**)).

(٧) أخرج الطبراني والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله (ﷺ): ((**يا بني عبد المطلب إني سألت الله لكم ثلاثاً أن يثبت قلوبكم وأن يعلم جاهلكم ويهدى ضالكم وسألته أن يجعلكم جوداء نجداء رحماء فلو أن رجلا صفن بين الركن والمقام فصلى وصام ثم مات وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار**)).

(٨) أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) قال: ((**بغض بنى هاشم والأنصار كفر وبغض العرب نفاق**)).

(٩) أخرج ابن عدى فى الكامل عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال قال رسول الله (ﷺ): ((**من أبغضنا أهل البيت فهو منافق**)).

(١٠) أخرج ابن حبان فى صحيحه والحاكم عن أبى سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله (ﷺ): ((**والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله الله النار**)).

(١١) أخرج الطبراني عن الحسن بن على رضي الله عنهما أنه قال لمعاوية بن خديج يا معاوية بن خديج إياك وبغضنا فإن رسول الله (ﷺ) قال: ((**لا يبغضنا أحد ولا يحسدنا أحد إلا ذيد يوم القيامة عن الحوض بسياط من نار**)). ذيد أى طرد.

(١٢) أخرج ابن عدى والبيهقي فى شعب الإيمان عن على رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**من لم يعرف حق عترتى والأنصار فهو لإحدى ثلاث إما منافق وإما لزانية وإما لغير طهر**)) يعنى حملته أمه على غير طهر.

(١٣) أخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: آخر ما تكلم به رسول الله (ﷺ): ((**اخلفوني فى أهل بيتي**)).

(١٤) أخرج الطبرانى فى الأوسط عن الحسن بن على رضي الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) قال: ((**الزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا والذي نفسي بيده لا ينفع عبد عمل عمله إلا بمعرفة حقنا**)).

(١٥) أخرج الطبرانى فى الأوسط عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال خطبنا رسول الله (ﷺ) فسمعته وهو يقول: ((**أيها الناس من أبغضنا أهل البيت حشره الله تعالى يوم القيامة يهودياً**)).

(١٦) أخرج الطبرانى فى الأوسط عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما سمعت

رسول الله (ﷺ) يقول: ((**يا بنى هاشم إنى قد سألت الله لكم أن يجعلكم نجداء رحماء وسألته أن يهدى ضالكم ويؤمن خائفكم ويشبع جائعكم والذي نفسي بيده لا يؤمن أحد حتى يحبكم بحبي ليرجون أن يدخلوا الجنة بشافعتى**)).

(١٧) أخرج ابن أبى شيبة ومسدد فى مسنديهما والحاكم والترمذي فى نوادر الأصول وأبو يعلى والطبراني عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي**)).

(١٨) أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى سعيد رضي الله عنه قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((**إنما مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة فى بنى إسرائيل من دخله غُفر له**)).

(١٩) أخرج البخاري فى تاريخه عن الحسن بن على رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**لكل شيء أساس وأساس الإسلام حب أصحاب رسول الله وحب أهل بيته**)).

(٢٠) أخرج الحاكم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**لكل بنى أم عصبة ينتمون إليهم إلا بنى فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم**)).

(٢١) أخرج الطبرانى فى الأوسط عن جابر رضي الله عنه أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول للناس حين تزوج بنت على رضي الله عنه: آلا تهنئونى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((**ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببي ونسبى**)).

(٢٢) أخرج الحاكم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**وعدني ربى فى أهل بيتي من أقر منهم لله بالتوحيد ولى بالبلاغ أنه لا يعذبهم**)).

(٢٣) أخرج ابن جرير فى تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما فى قوله تعالى: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾** (الضحى: ٥). قال: من رِضَا محمد أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار.

. (٢٤) أخرج البزار وأبو يعلى والعقيلى والطبراني وابن شاهين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار**)).

(٢٥) أخرج الترمذي وحسنه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي**)).

(٢٦) أخرج الخطيب في تاريخه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**شفاعتي لمن أحب أهل بيتي**)).

(٢٧) أخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**أول من أشفع له من أمتي أهل بيتي**)).

(٢٨) أخرج الطبراني عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبيه قال: خطبنا رسول الله (ﷺ) بالجحفة فقال: ((**ألست أولى بكم من أنفسكم قالوا بلى يا رسول الله قال فإني سائلكم عن اثنين عن القرآن وعترتي**)).

(٢٩) أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه وعن محبتنا أهل البيت**)).

(٣٠) أخرج الديلمي عن علي رضي الله عنه سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((**أول من يرد عليَّ الحوض أهل بيتي**)).

(٣١) أخرج الديلمي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**أدبوا أولادكم على ثلاث حب نبيكم وحب أهل بيته وعلى قراءة القرآن فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه**)).

(٣٢) أخرج الديلمي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**أثبتكم على الصراط أشدكم حبا لأهل بيتي وأصحابي**)).

(٣٣) أخرج الديلمي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة المكرم لذريتي والقاضي لهم الحوائج والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه والمحب لهم بقلبه ولسانه**)).

(٣٤) أخرج الديلمي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): ((**اشتد غضب الله على من آذاني في عترتي**)).

(٣٥) أخرج الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ):

((إن الله يبغض الآكل فوق شبعه والغافل عن طاعة ربه والتارك لسنة نبيه والمخفر ذمته والمبغض عترته والمؤذي جيرانه (ﷺ))).

(٣٦) أخرج الديلمي عن أبي سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ):

((أهل بيتي والأنصار كَرشي وعيبتي وموضع مسرتي وأماني فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم)).

(٣٧) أخرج ابن عساكر عن علي رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ):

((من صنع إلى أحد من أهل بيتى يدا كافاته يوم القيامة)).

(٣٨) أخرج الترمذى والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة رضى الله عنها مرفوعاً: **((ستة لعنهم الله وكل نبي مجاب: الزائد فى كتاب الله والمكذب بقدر الله والمتسلط بالجبروت فيعز بذلك من أذل الله ويذل من أعز الله والمستحل لحرم الله والمستحل من عترتى ما حرم الله والتارك لسنّتي)).**

(٣٩) أخرج الحاكم فى تاريخه والديلمي عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **((ثلاث من حفظهن حفظ الله له دينه ودنياه ومن ضيعهن لم يحفظ الله له شيئا: حرمة الإسلام وحرمتي وحرمة رحمي)).**

(٤٠) أخرج الديلمي عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **((خير الناس العرب وخير العرب قريش وخير قريش بنو هاشم)).**

* * *

خاتمة

فى فضل أزواجه ﷺ

عن علي رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((**خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد**)). رواه الشيخان.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: أتى جبريل النبي (ﷺ) فقال: "يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أوطعام فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب". رواه الشيخان، والقصب هنا هو اللؤلؤ المجوف.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: (ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي (ﷺ) ما غِرْتُ من خديجة وما رأيتها ولكن كان (ﷺ) يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها إلى صدائق خديجة فربما قلت له كأنه لم تكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: إنها كانت وكانت وكان لى منها ولد). رواه الشيخان.

وعن أبى سلمة أن عائشة رضى الله عنها قالت: (قال رسول الله (ﷺ): يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام قالت: وعليه السلام ورحمة الله قالت: وهو يرى ما لا نرى) رواه البخاري ومسلم.

. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله (ﷺ): ((**أُريتك فى المنام ثلاث ليال يجيء بك الملك فى سرقة من حرير فقال لى هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنت هى فقلت: إن يكن هذا من عند الله يمضه**)) رواه الشيخان.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: (إن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله (ﷺ) وقالت: إن نساء رسول الله (ﷺ) كن حزبين فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله (ﷺ) فكلم حزب أم سلمة فقلن لها كلمي رسول الله (ﷺ) يكلم الناس فيقول من أراد أن يهدى إلى رسول الله (ﷺ) فليهد إليه حيث كان فكلمته فقال: لها لا تؤذيني فى عائشة فإن الوحى لم يأتني وأنا فى ثوب امرأة إلا عائشة قالت أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله ثم إنهم دعون فاطمة فأرسلنها إلى رسول الله (ﷺ) فكلمته فقال: يا بنية ألا تحبين ما أحب قالت: بلى قال: فأحبي هذه) رواه الشيخان.

عن أنس رضى الله عنه أن النبي (ﷺ) قال: ((**حسبك من نساء العالمين مريم بنت**

عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون)) رواه الترمذي.

وعن عائشة رضى الله عنها: (أن جبريل عليه السلام جاء بصورتها فى خرقة حرير خضراء إلى رسول الله (ﷺ) فقال: هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة).

وعن أنس رضى الله عنه قال: (بلَغ صفية أن حفصة قالت بنت يهودي فبكت فدخل عليها رسول الله (ﷺ) وهى تبكى فقال: ما يبكيك فقالت قالت لى حفصة إنى ابنة يهودي فقال النبي (ﷺ): إنك لابنة نبي وأن عمك لنبي وأنك لتحت نبي ففيم تفخر عليك ثم قال: اتق الله يا حفصة) رواه الترمذي والنسائي.

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: "ما أشكل علينا أصحاب رسول الله (ﷺ) حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما" رواه الترمذي وصححه.

وعن موسى بن طلحة قال: " ما رأيت أحداً أفصح من عائشة" رواه الترمذي وصححه.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: (لما قسم رسول الله (ﷺ) سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن شماس أولا بزعم له فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه فأتت رسول الله (ﷺ) لتستعينه فى كتابتها قالت فوا لله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها إذ عرفت أنه سيرى منها ما رأيت فدخلت عليه فقالت: يارسول الله جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لا يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن شماس أولا بزعم له فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك في كتابتي قال: فهل لك فى خير من ذلك قالت وما هو يارسول الله قال أقضى كتابتك وأتزوجك قالت: نعم يارسول الله قال: قد فعلت قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله (ﷺ) تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله (ﷺ) فأرسلوا ما بأيديهم فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها) رواه الإمام أحمد.

وعن مسلم قال: "سألت مسروقا كانت عائشة تحسن الفرائض قال والذي لا إله غيره لقد رأيت الأكابر من أصحاب محمد (ﷺ) يسألونها عن الفرائض ".

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

* * *

الفهرس

الفهرس	الصفحة

مقدمة المؤلف	٣
الباب الأول: الرسول صلى الله عليه وسلم مولده	٧
الباب الثانى: معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم	١٧
الباب الثالث: مصاحبة جبريل لرسول الله	٣١
الباب الرابع: الاسراء والمعراج	٣٦
الباب الخامس: نظرة فى أزواج النبى وتعدد زوجاته	٥٤
الباب السادس: السيدة خديجة ام المؤمنين رضى الله عنها	٨٠
الباب السابع :ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها	١١٥
الباب الثامن: وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم	١٢٩
الباب التاسع: اربعون حديثا فى فضل اهل البيت	١٣٦
خاتمة	١٤١
الفهرس	١٤٣